

دكتور محمد طلعت الانبأشى

# الشيوعية عند ما نتصادق



دار المعارف





# الشيوعية عندما نتصادق



بقلم

دکنور محمد طلعت الابراشی

الهيئة العامة للغذاء والدواء  
رقم الترخيص: ١١٧٦٤  
رقم الترخيص: ١١٧٦٤



५ : ३३०१ १२ ३

**30.3.25**

— 325 —

1994

22



## دارالمعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

## إهداء

إلى كل إنسان على هذه المعمورة يريد حياة حرة شريفة  
قوامها الإخاء والتعاون والسلام لخير البشرية جمعاء أهدي كتابي  
هذا كي يعايش الشيوعية بواقعها المرير كما عايشتها عن قرب ، لا  
عن مجرد ما كتب عنها ، وليتعرف على أساليب الشيوعية البغيضة  
وكيف تنفذ بها إلى ضحاياها من الشعوب ،





## شكر وامتنان

أتقدم بالشكر الخالص لكل من عبر عن أحاسيسه الحقيقية وأفصح عما يحول بخاطره ، أو أمدني بمعلومات - سواء عن طريق المجادلة أو التصرف اللاإرادي من أفراد الشعب الكوي - ساعدتني على الإلمام الحقيقي بخفايا الشيوعية وأرزائها ، كما أنني أعترف بالجميل لكل من شجعني على كتابة هذا الكتيب بما أراح نفسي وأزاح كابوساً كان جاثماً ومهيماً على صدري وحدي ، وكى يتعرف الملايين من البشر على حقيقة الشيوعية ، وكيف تنفذ إلى الشعوب ليأخذوا الحيلة منها ومن أعوانها وعملاتها ، ويحاربونها بكل ما هو مستطاع . . .

وأخيراً وليس آخراً . . أود أن أسجل امتناني وتقديري البالغ لأفراد أسرقى ، وقد آثروا البقاء معي دفعاً لإتمام رسالتي الموفد من أجلها متحملين مشاق جمة ما بين ظروف عاتية وبين مشاركة وجدانية من شعب كتبت عليه الذلة والمسكنة !



## تسيم

بالرغم من أن « كارل ماركس » ( ١٨١٨ - ١٨٨٣ ) قد ولد في ألمانيا فإنه عاش معظم سنوات حياته بإنجلترا ، وهناك ومع بداية الثورة الصناعية شاهد الظلم والاستبداد الذى حاق بالطبقة العاملة ومدى استغلال الرأسمالية الصناعية لهم . . . ولربما كان هذا هو العامل الأساسى الذى دفعه إلى وضع نظريته عن « المادية الجدلية » فيما ناقشه وأصدره في « البيان الشيوعى » مطالباً بضرورة تغيير نظم المجتمعات البشرية بحيث تصير للطبقة العاملة السيطرة على الحكومات وعلى الموارد الزراعية والصناعية بها . . . ولكى يتحقق هذا التغيير فقد دعا « ماركس » إلى ضرورة اتحاد الطبقات العاملة في جميع الدول بما يؤدي إلى قيام ثورة عمالية عالمية . .

وكانت البلشفية السوفيتية ، بقيادة « نيكولاي لينين » ( ١٨٧٠ - ١٩٢٤ ) وهو محام من الطبقة البرجوازية ، أول ما ثبتت هذه النظرية ، فبمجرد إطاحتها لروسيا القيصرية بقيام ثورة عام ١٩١٧ أسس « لينين » أول حكومة شيوعية في

العالم ، وهى « اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية » ونقل الملكية الزراعية إلى الفلاحين ، فى حين صودرت جميع إمكانيات وموارد البلاد الأخرى كافة إلى السلطة الحاكمة ، والتي لم تتألف سوى من حفنة أفراد ممن قادوا معه الثورة وانتخبوه قائداً للبلاد .

وقد اتسم النظام الشيوعى منذ قيامه بدكتاتورية الحكم فى الداخل وبالسعى لفرض سطوته ونشر مبادئه خارج البلاد ، ولربما قد ساعد على ذلك اتساع رقعة الاتحاد السوفيتى ( ٢٢ مليون كيلو متر مربع ) حيث تمتد من شرق أوروبا إلى شمال آسيا بالإضافة إلى تعداده الضخم من السكان وتنوع أجناسهم من الصقالبة إلى المنغول . . ويتضح ذلك جلياً فى التهام الاتحاد السوفيتى لثلاث من دويلات البلطيق قبل قيام الحرب العالمية الثانية ، وبانتهاء الحرب كان أكثر من نصف قارة أوروبا فى شرقها داخل دائرة نفوذه يبرزح تحت ويلات الشيوعية ، وذلك عن طريق تواطؤ الأحزاب الشيوعية بهذه البلاد معه ضد حكوماتهم ، حيث عمل الاتحاد السوفيتى على تدعيمهم وتقوية نفوذهم خلال سنوات الحرب وقبلها .

والحقيقة أن أكثر من ٥٠ ٪ من سكان العالم الآن ينجثقون بدخان الشيوعية الخائق ، ومع كل فلا يزال السوفيت مستمرين فى سياسة التوسع فى فرض نفوذهم وسيطرتهم على دول العالم أينما سنحت الفرصة وأينما نجحت غططاتهم . .

ولقد عشت الشيوعية عن قرب بإحدى البلاد التى وقعت فريسة فى مخالب الاتحاد السوفيتى ألا وهى كوبا « لؤلؤة جزر الهند الغربية » كما كانت تسمى دائماً ، ولقد كانت فرصة نادرة كى أدخل إلى هذا البلد المعزول وأعيش به

عامين كاملين كخبير بالأمم المتحدة ، حيث إنه يعيش وراء ستار حديدي لا يدخل إليه أو يخرج منه أحد . . يؤمه فقط رجال السلك الدبلوماسي ولا يعتبرون في نظر السلطة الحاكمة هناك سوى جواسيس لبلادهم حتى ولو كانوا من البلاد الشيوعية الأخرى ! فالقيود عليهم لذلك كثيرة بما لا يدع لديهم فرصة الاحتكاك بالأهالي للتعرف بعمق على ظروفهم وأحوال معيشتهم ، والغريب أن السياحة بكوبا غير مسموح بها رغم أنها كانت تمثل ركناً أساسياً من الدخل القومي الكوبي . . ومع كل فالتائح القادم لأي بلد غالباً ما تكون إقامته لفترة وجيزة وفي انزال عن المجتمع تقريباً ، لا يهتم سوى بالاستمتاع والمشاهدة ، بل تعتمد مثل هذه البلاد إلى إعطائه صورة منمقة وزائفة لا تمثل الواقع الحقيقي .

لقد عشت الشيوعية بعد ٨ سنوات من عمرها بكوبا ورأيت فيها من الحياة الغربية ، ما لا يمكن أن يتصورها إنسان لأخيه الإنسان في أي عصر وتحت أي حكم . . فلقد قام « فيدل كاسترو » بثورته « الاشتراكية » للإطاحة بالحكم الدكتاتوري للرئيس « باتستا » ولإيقاظ الشعب الكوبي من الظلم والفساد الذي ساد البلاد ، فجاء بالشيوعية ليضيف أفانين شتى من الظلم ، بل ليسلب الدهماء الحياة نفسها ، فهرب من هرب ، وهاجر من هاجر ، وقد كانوا بحكم « باتستا » راضين عائشين .

فلقد رأيت بناظري في النظام الشيوعي كل صنوف الموبقات بما لا تتسع لها المعاجم والموسوعات ، رأيت فيه دكتاتورية الحكم ، الإلحاد ، الجوع ، العرى ، انتهاك الحرمات ، امتهان كرامة الإنسان ، إلغاء الفكر والعقل ، كبت الحريات ، السخرة ، الإرهاب ، وهذا قليل من كثير . . قليل مما سيتفكك إليه هذا الكتيب لتعيش مسرح الحياة الحقيقية والأمثلة الحية لموبقات الشيوعية في

أحد البلاد التي تصادقت هي والاتحاد السوفيتي : وباويل من يتصادق هو وقادته ! فسرعان ما يقع في جبالهم وأذرع أخطبوطهم لُتمتص دماؤه ويصبح جثة هامدة لا حراك فيها . . إن هدف الشيوعية في نهايته استتراف خيرات الشعوب واستعباد أفرادها لمصلحة حفنة قليلة تربعت على عرش الكرملين لتنفث سمومها في البشر ولتحسّف كالحية الرقطاء إرهاباً وإذعاناً لها . . كلماتهم جوفاء يكثرّون من الزيف ويطنون بالأوهام . . ألا في سبيل المجد . . أحزموا البطون ! وهل ينفع المجد من أشقى على الموت ؟

د . محمد طلعت الإبراشي

أستاذ بالمركز القومي للبحوث

## أحلام اليقظة

. . . وطئت أقدامنا أرض المطار . . . مطار « هافانا » ، وكانت الساعة - حسباً تشير ساعتنا - الرابعة صباحاً . . . ولكم كانت سعادتنا أن نجد في استقبالنا جمعاً من الزملاء والخبراء ، يتقدمهم « مدير المشروع » الذى سأتعاون فيه . . . وكان طبيعياً أن توجه قرينتى إليهم عبارات الثناء والشكر على هذه الحفاوة التى تندر أن تحدث فى تلك الساعة المبكرة من الصباح .. وكم كانت دهشتنا بالغة عندما علمنا أن الساعة لم تتجاوز بعد الحادية عشرة من المساء ، فقد رحنا فى ثبات عميق عبر الأطلنطى ، ولهذا لم نفطن إلى الفارق الزمنى بين غرب أوروبا ونصف الكرة الغربى . . . ومع كل فقد كانت لحظة إنسانية لطيفة ، تلك التى بعثت فينا أملاً كبيراً فى تلك الحياة المرتقبة على أرض المجهول ، فعلى الأقل زمالة أو صداقة قوامها الحب والتقدير فى بقعة من العالم لا نعلم عنها غير القليل ، والقليل جداً ، لا نعلم عنها سوى بعض المشكلات الطفيفة التى قد تصادف خبراء الأمم المتحدة فى كثير من البلاد النامية . . . كان المطار « الدولى » خاوياً

يسبح في هدوء مستفيض لا يتطلق من أرجائه سوى أزيز إحدى الطائرات ، ولا ينبعث من جنباته سوى بعض الأضواء الخافتة . رأيت مدير المشروع يتقدم نحو قرينتي ليقدم إليها لفاقة ، وعندئذ علق أحد المستقبلين ، وقد أطلق ضحكة عريضة ، مبيناً أنها لأعظم هدية لقادم إلى هذا البلد ، فهي لفاقة تضم عدداً من الشمعات ! . وقد كان هذا أول نذير لما سنقاسيه من متاعب ، ألا وهو انقطاع التيار الكهربائي بمسكننا المرتقب . . وعندئذ نهجمت وجوهنا وتبدلت أسارير الفرح والابتسامة بآس ووجوم منقطع النظير ، ورحنا نسير ونحن نجر أقدامنا ونتعثر في الخطى أتبادل أنا وقرينتي نظرات الحيرة والدهشة ، وكأننا قد قررنا العودة إلى بلادنا ، فلا مجال لمجاهة مصير بضرارته ولا داع للخوض في غياهب المجهول . .

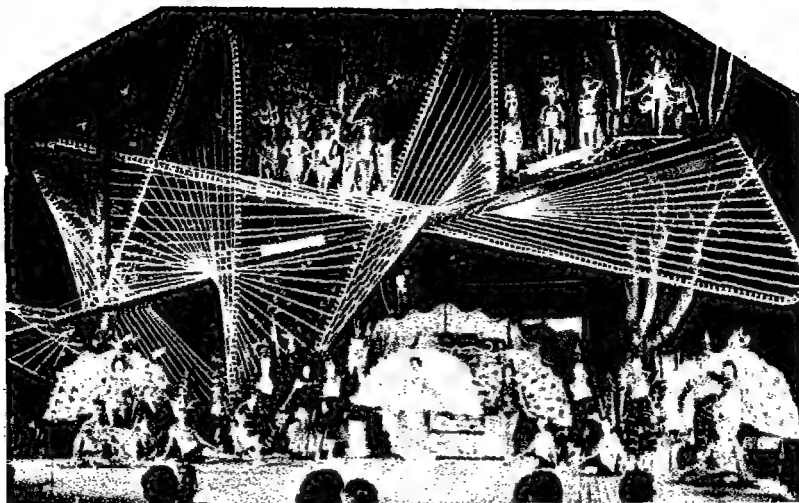
وهنا توقفنا لتقلنا سيارة « المشروع » إلى المسكن وسرعان ما استعدنا أنفاسنا ودبت الحياة مرة أخرى في أجسادنا عندما تأكدنا من المبيت بمسكن خاص لا يشاركنا فيه أحد فأننى أعلم مسبقاً مدى صعوبة الحصول على مسكن بهذا البلد ، بل استحالت أحياناً . . وراحت السيارة تشق العنان بالطرقات في ظلام دامس لا يتطرق إلى آذاننا فيه سوى حفيف أشجار متكاثفة تلاطم أغصانها وأوراقها رياح ضارية ذات زجاجة عالية لم نتعود على سماعها من قبل ، كل الأرجاء من حولنا خالية وكأنها تنذر بشيء غامض يدور رحاه بتلك العاصمة التي كانت ذات يوم « شحاء » يلتقى فيها رجال الأعمال والمؤلفون والشعراء ومشاهير المثليين أمثال « هامنجوى » ، « أوناسيس » و« كلارك جيبيل » وغيرهم . . ويؤمها السائحون والأثرياء من كل حدب وصوب يستمتعون بأعظم بقاع العالم سحراً وجمالاً ، تلك الجزيرة التي تنساب شلالاتها بين قمم جبال « السيراميسترا »



بما يعلوها من أشجار النخيل وجوز الهند . . وأودية خصبة تتخللها كهوف كلسية  
تنتشر بمدخلها « الأجواكاتو » و« عش الغراب » . . وتظلها غابات قد  
تعانقت أشجارها وتباينت أحيائها ، فمن زقزقة الطيور نهاراً إلى درر الحشرات  
« الوضاعة » ليلاً . . حدائق خلابة ويساتين فيحاء تنتشر في جنباتها كل صنوف  
الفاكهة والزهور . . الليالي الصاخبة والفنادق الفخمة ذات الشهرة العالمية مثل  
« براديرو » و« الناسيونال » و« لاس أمريكاز » فإنها تسحرك بجبالها وثراتها  
الفريد ، وتنقلك إلى أجواء أمريكا اللاتينية وما تتميز به من الرقصات الخالدة  
والحية . . السمبا ، الرمبا ، تشاتشاتشا ، وموسيقى الطرب والمرح ، تصدح  
وتنسب مع نسيمات الليل العليل بما يشنف الآذان ويعيد للقلوب نضارتها  
ولللألباب راحتها ( انظر الشكل رقم ١ ) .

وتطل الحمامات الخاصة على البحر الكاريبي بمياهه الرقاقة الصافية ، ذات  
التدرج الطيني بكل ألوانه الزاهية ، وبأحيائه المائية النادرة ، ولعل رحلة صيد  
في عبابه قد تأخذك إلى عالم غير عالمنا وإلى حياة غير التي نألفها . . بلاجات  
وشواطئ تكسوها خضرة يانعة وتمتد بين جزوع أشجارها أراجيح أو شباك النوم  
المعروفة هناك بـ « الآماكاز » تستطيع استرخاء وتأملاً في ملكوت السموات  
والأرض وعظمة الخالق . . « سانتا ماريا » ، « صلا دو » ، « براديرو »  
و« باراكوا » ( انظر شكل رقم ٢ ) أسماء يسيل لها لعاب المصطاف ويرن صداها  
ليلاً أرجاء الدنيا جميعاً شغفاً واجتذاباً لرؤيتها والتمتع بمباهجها .

وقد تأخذك قدماك إلى مناطق « صوروا » ( شكل رقم ٣ ) ، « ترينيداد »  
( شكل رقم ٤ ) ، « جواماه » كي تنعم بأكواخ الهندود الحمر ، سكان البلاد



(شكل ١) - «نزويكانا» ، أشهر وأرق الملاهي الليلية في العالم . . كان يسيل ذكر اسمه لعاب الأثرياء  
وياحى للثمة والصخب من كل صوب وحلب .



VISTAS DE VARADERO.

Foto: Victor.

(شكل ٢) - شاطئ «قراديو» ، أجمل شواطئ العالم وأشهرها ، كتمودج للشواطئ الكوبية بما تكسوها  
من خضرة يانعة . . لقد أصبح الآن يفتقر إلى وسائل الراحة والخدمة السياحية .



(شكل ٣) - منطقة صرورا، مدينة كانديلازا، حيث سحر الطبيعة الأخاذ وملاحتها الرقيقة. لم  
يعد يستمتع بها غير بعض الأجانب المقيمين بكريا وكبار رجالات الحرب الشيوعي الكونك. وقد حرم  
الكوريون وسكان المصرة من رؤية أجمل بقاع العالم.



(شكل ٤) - أحد شوارع مدينة ترينيداد من أبنية القرن السادس عشر تعبيرا عن الفن الأسباني القديم . .  
ولقد اختفت صورة هذا البائع الجائل الذي كان مظهراً عاماً من مظاهر الحير والحياة الكويبة الرغدة ،  
حيث كان يحمل إلى الأهالي حيث يسكنون ما قد يحتاجون إليه يومياً من شئ ألوان الخضر والفاكهة  
الطازجة من القرى المجاورة

الأصليين ، وببصمات التاريخ وأول استكشافات « خرسstof كولومبوس » للعالم  
الجديد .

استيقظت من أحلامي التي أخذتني إلى هذا العالم البعيد ببعض ما كان فيه  
من ماض جلل حين ريت على كتفي مدير المشروع معلناً وصولنا إلى المسكن . .  
إنه يبدو كبيراً وشاعخاً ، وفي ظلمة خالكة رحنا نتحسس الطريق إلى بابه ، وما  
إن دخلناه حتى همت قرينتي بتجهيز إحدى الشمعات المهداة سائلة إياي ولاعتي  
إيداناً بإشعالها ، ولكم كانت فرحتنا شديدة عندما ضغطت على أحد أزرار  
الإضاءة لتفاجأ بالنور وقد ملا كل ركن فيه ، ولنشاهد بريقاً متألّفاً لأول مرة منذ

مغادرتنا مطار « مدريد » بإسبانيا .

وكما كنت أكثر الزملاء حظاً في العثور على مسكن منذ الليلة الأولى ، فلقد اكتشفت فيما بعد أننا كنا أكثر حظاً أيضاً بهذا المسكن الذي لم ينقطع فيه التيار الكهربائي طوال العامين اللذين عشناهما هناك ، ولعل السبب أننا كنا جيراناً لأحد مكاتب الحزب الشيوعي الكوبي في هذه المنطقة « شارع ١٨ من حي ميرامار » .



## حي «ميرامار» بين الماضي والحاضر

لم أنم تلك الليلة بطبيعة الحال ، فلقد أخذت مسبقاً قسطاً كبيراً من النوم بالطائرة ، ومع بزوغ شمس الصباح وجدت نفسي تواقاً إلى رؤية ما يحيط بالمسكن ، فلقد أيقنت للوهلة الأولى أننا في حي راقٍ ، وكما علمت فيما بعد أنه حي «ميرامار» أرقى وأجمل أحياء «هافانا» ، وما المسكن الذي نقطنه سوى قصر صغير لثرى سابق ذى حديقة لم يبق منها غير نافورة من المرمر الطبيعي وقد هجرتها المياه والحياة بلا رجعة . . ولا يسكن حي ميرامار حالياً سوى خبراء الأمم المتحدة ، وأعضاء السلك الدبلوماسي ، وكبار أعضاء الحزب الشيوعي الكوبي .

ولا يزال حي ميرامار يطوى بين جنباته أقاليم وأقاليم يرودها بعض الناس ترحماً وشوقاً إلى الماضي ، ولقد كانت تطرب لها نفسي عند سماعها ، بل يأخذني الفضول كثيراً إلى التقصي عن حقائق الأمور وخفاياها ، وعندما كنت أقارن الماضي بالحاضر . . الماضي بعظمته ورونقه ، والحاضر بظلمه وكآبته

فسرعان ما تعتربنى الموم ويستبد بى الوجوم . . إنه لظلم الإنسان لأخيه الإنسان . .

فهذا هو أحد المواطنين « السنيور سوارز » ( ٧٠ سنة ) لم يكن بليونيراً فحسب ، بل كان أيضاً سفيراً مرموقاً لبلاده ، تنقل بين العواصم الأوربية الكبرى ، ويحيد من اللغات الحية ما لا يقل عن ٧ لغات . . لديه ثقافات واسعة ، ويهوى الكثير من الفنون والآداب . . ذهنه زاخر بالمعلومات وعقله كأنه « بوتقة » كبيرة انصهرت فيها شرذمة ضخمة من « دوائر المعرفة » ، تطرب لمجالسته وتهلع لذكائه . . يتصيد الأجانب لعله يضيف إلى معلوماته وثقافته ما قد حرمتها منها أيام الغدر والتقيصة وما قد فاته طوال سنى الذل والهوان ، فلم يعد في متناول يده - كبقية المواطنين - أية إمكانية لاقتناء كتب حديثة ذات قيمة ، أو إمكانية الاطلاع على صحف أو مجلات غير كويتية ، بل محظور عليه مجرد الاستماع إلى أية إذاعات أجنبية . .

لقد كان لديه مزرعة تريد على ٥ آلاف هكتار ( أى حوالى ١٢ ألف فدان ) بها من الزراعات والمحاصيل البستانية الاستوائية ، كاللوز والمango والأناناس واللحان ، ما يدر عليه ثراءً بئراً . . كان يمتلك ٩ قصور وما يزيد على ٣٠ سيارة فخمة من ذوات المحركين كالاولدزمويل ، الكاديلاك ، الشيفورليه وما شابه ، وإمعاناً في التفاخر وحس التغيير فلقد علمت منه أنه كان يقوم بتغيير لون سياراته بين العشية وضحاها وكان الثلاثين أصبحوا ستيناً ! كان يستمتع بثلاث طائرات خاصة بالإضافة إلى البخوت المتعددة التى كان يخرج بها لأغراض التزهة والصيد ، كان لديه أسطول بحرى يمحى عباب الأطلنطى ناقلاً أحجار المرمر الطبيعى من منجم والده بكوباكى ينحت ويشكل على هيئة تماثيل بمدينة



« روما » حيث كانت والدته الإيطالية فنانة تعمل بفن النحت وتمتلك معرضاً ذائع الصيت لهذا الغرض هناك ، وتعود التماثيل لتباع إلى أثرياء كوبا ، بل إلى كل من يهتم باقتنائها من أغنياء الأمريكتين .

لقد ولّى كل هذا الثراء وأصبح حالاً صفر الديدن ، يعيش في أصغر قصوره التي أفقرت حديقته الآن ولم تعد سوى خراب تؤمها الحشرات والجردان ، لقد تركت له الدولة سيارة واحدة أصبحت هيكلًا يعلوه الصدا ولا تجد الأنوار واللكشافات إليها سبيلاً . . لم يتبق بالقصر من الأثاث الفاخر والسجاد « العجمي » والنجف « الباكراه » والفايزات « السفير » والألواح الزيتية الأصبلة من أعمال « فان خوخ » و« رومبراندت » و« ليوناردو دافنشى » وما شابههم سوى أقل القليل ، أو بعبارة أخرى « عينات » لما كان يقتنيه به . لقد استحوذوا على كل ما يمتلك وقرينته « السنيورة مارجوت » ( ٥٥ سنة ) من مجوهرات ، تاركين لها فقط بعض المقلدات « المزيفات » منها والتي كانت تستخدم لأغراض التمويه ضد السرقات . . ولقد علمت من سوارز أن هذه « العينات » قد حرر بها قائمة رسمية باعتبارها أمانة ! لا يتصرف في أى من مشتلاتها ولو بالإهداء إلى الغير ، بل تظل في عهده وقرينته إلى أن تلحق بأيهما المنية أيهما أبعد . . ولتعلم ، أيها القارئ العزيز ، أنه لا حقوق لإرث شرعى حتى وإن كان له أولاد ، فهذا هو التشريع العام للبلاد الآن ، أو بالأصح التشريع « الشيوعى » أينما وجد هذا النظام ! ولقد روى لى سوارز أنه كان في حاجة ملحة إلى تغيير إطارات سيارته ودهان مدخل قصره بالزيت ، ولقد قايضته الدولة في نظير تحقيق ذلك بإحدى النجفتين المتبقيتين بالقصر كله بعد الاستيلاء وتقدر قيمتها وحدها بما لا يقل عن ٢٠ ألف دولار ، فقط مثل هذه الظروف هي التي يمكنه

فيها التصرف مع الدولة بما لديه من هذه المتبقيات وبهذه الصورة من الابتزاز . .  
ولقد حرص « فيدل كاسترو » رئيس الوزراء ورئيس الحزب الشيوعي الكوبي  
الحاكم على مصاحبة لجان « الجرد » وخاصة إلى الشخصيات البارزة والثرية  
ليتعرف بنفسه على ما يمتلكون وليحظ بفرصة الاختيار الأولى لاستحوازه  
الشخصي على ما قد يروق في عينيه من هذه الممتلكات قبل أن تعبت بها أيدي  
رجاله من أعضاء الحزب ، وليؤكد بنفسه شتماته ، وليطوى صفحة من  
صفحات الماضي بالمهانة والإذلال دون أى تمييز أو تفرقة ، قد يكون محققاً في  
ذلك تجاه بعض الأفراد الانتهازيين أو ممن ضربوا بعرض الحائط مصالح البلاد  
العليا - أمثال جينوفيفو داميرا ، كارلوس سالادريجاس وقليل غيرهم وقد لا  
تخلو منهم بعض المجتمعات في كل أوان ومكان غير أن هذه الشخصية -  
شخصية السنيور سوارز - كانت دائماً وأبداً عظيمة حتى في أحلك أيامها ، فلقد  
عرفته عن قرب بل قد علمت من مصادر كثيرة - بعضها عن كبار الحزب  
الشيوعي الحاكم ذاته - أنه ممن ساعدوا فيدل كاسترو مادياً ومعنوياً على قلب  
نظام الحكم السابق إيماناً بضرورة التخلص من فسادة والإطاحة بدكتاتورية  
« باتستا » الرئيس السابق للبلاد ، ولولا مساندة « الحزب الجمهوري الحاكم »  
في العهد السابق ، وسوارز من أكبر وأبرز رجاله ، ما تم لفيدل كاسترو وجاعته  
تحقيق مخططهم . .

ولا أدل على عظمة هذا الرجل وارتباطه الشديد بأرض بلاده من أنه لم  
يطلب الهجرة كما فعل الكثير ، بل أخلد ضميره إلى الله وعاش ببلاده مستكيناً  
ليقاسى أعنف إرهاب سياسى عرفه التاريخ الحديث ، وليقضى ما بقى من حياته  
تحت وطأة المجاعة والإذلال والمهانة ، لقد كان في إمكان السنيور سوارز أن يترك

البلاد ليعيش لاجئاً سياسياً بالولايات المتحدة الأمريكية ، وخاصة أن أرصدته تملأ بنوكها بالإضافة إلى أنه كان مجتهداً بجيش الحلفاء في الحرب العالمية ، وبإمكانه أيضاً أن يتجنس بالجنسية الإيطالية نسبة إلى أمه الإيطالية وبحكم فوايسها ، وله من أرصدته بالبنوك الإيطالية هناك أيضاً ما يمكنه من العيش أكرمه ومن الحياة أفضلها ، ولكنه رغب في أن يظل بكوبا مسقط رأسه حتى توافيه المنية فيدفن في أرض جدوده وأسلافه . .

ولما انتهى كل شيء وسلب ما سلب ، وهمّ فيدل كاسترو بالانصراف مع لجنته « الموقرة » ، لجنة الجرد ، توجه إلى السنيور سوارز مؤكداً بكل شجاعة أنه لم يعد لديه شيء حتى يتعيش منه ، وهكذا كان يجب أن يعيش دائماً ! إلا أن صديقنا السنيور سوارز أفهمه بأن هناك شيئاً ثميناً لم يفتنوا إليه ولن يمكنهم الاستيلاء عليه ما حياهم الله ، ألا وهي حياته الماضية بكل ما فيها من فخر واعتزاز وإرضاء للنفس وإيمان بالله . . بهذه المعاني ، وبهذه الفلسفة العميقة تمكن السنيور سوارز والكثير من أمثاله من البقاء وقلوبهم وعقولهم مليئة بذكريات الماضي البعيد ، الذكريات الحلوة العطرة يستنشقون من أريج هوائها النقي ما ينبض قلوبهم ويبعث فيها الحياة ، حياة غضة متفائلة بقدرة وعظمة الخالق ، وبأن لكل ظالم نهاية ، عاجلة كانت أم آجلة .

ولتعلم يا عزيزي القارئ . . أن هديتي لهذا السنيور العظيم عندما كنت أتوجه لزيارته قد لا تعدى « قيصاً » أو زوجاً من الدجاج أو كيلو جرام من السكر أو قليلاً من البن برغم أنه يقيم ببلاد السكر والبن !

وكثيراً ما كان يتردد عن قبول سيجارة « مستوردة » عندما أهم بتقديمها إليه على سبيل المجاملة لأنه يدرك مسبقاً مدى عجزه عن مبادلة هذه المجاملة ، ومع

الإلحاح الشديد يذعن لرغبتي ويتقبلها ، وقد علت وجهه أسارير غريبة قد تدرك منها خليطاً لعزاء الماضي وصحوة الحاضر ، وبدون وعى أراه وقد راح يشمها بنهم شديد قبل إشعالها وكأنه يستعيد رائحة الماضي البعيد بكل ما يحمل من ذكرى . . وعلى الفور تهدج أوداجه ، ويسحب ساعة جيبه الذهبية من صدازه المهلهل يخلق فيها بكل عظمة ، ثم ما يلبث أن تمتد قدمه تحت منضدته التي يفضل دائماً الجلوس إليها ليقرق جرساً ثبت زره تحت نُمرقها . . فتأتيه « مارجوت » باسم طائعة فهي بالنسبة إليه كل شيء ، قريته ، ابته ، خادمته . . يطلب منها أن تأتيه ببعض « الألبومات » التي لا يزال يحتفظ بها بمكتبته بالدور العلوى . . وما إن تطوياً ذراعه حتى يروح يقلب صفحاتها وكأنه يبحث عن شيء معين ، وفجأة يهر رأسه متهدأ مشيراً بأصبعه إلى إحدى الصور ، وموجهاً الحديث إلى مارجوت لعلها تذكره عندما كان يدخن سيجاراً فخمًا من سيجارات « هافانا » الشهيرة ! وعندئذ تومئ له برأسها وتنهّد تنهيدة عميقة ومليئة بالحسرة تركه في أعقابها ليحملنا معه إلى حياته السابقة وما تسجله الصور من حقائقها !

وسيجار « هافانا » الشهير لا يباع الآن بكوبا ، ولا حتى « بالخل الدبلوماسى » ، لقد حرصت الحكومة الحالية على إنتاج كمية محدودة منه تخصها للتصدير حفاظاً على هذه السمعة العالمية ، أما المواطنون البؤساء فليس أمامهم سوى الخيار بين ثلاث من السيجار الصغير « سيجاريوس » الملىء بثقوب « سوسة الدخان » أو علبتين من السجائر أسبوعياً للفرد المدخن ، مما أدى إلى إقلاع الكثير عن عادة التدخين ، تفضيلاً عن الزج بهم إلى غياهب السجون . . فياويل من تسول له نفسه محاولة الشراء من « السوق السوداء » . . برغم توافر

التقد لديهم ، والذي أطلقوا عليه ما يعرف « بالورق » أو « بابل » بالإسبانية ، فالنقود لا قيمة لها على الإطلاق ، فكل سلعة محددة الكمية بالنسبة للفرد ، ولا يسمح بتجاوزها تحت أى من الظروف . . وبإلتها كانت كافية ، بل هى - وللغربة - مجرد « عينات » قد تثير الشجون ولكنها لا تشبع الجوع ، خذ مثلاً السكر ولا تنس أيها القارئ العزيز أننا نتحدث عن بلاد السكر ! فللفرد ما قيمته رطل واحد شهرياً ، وإذا علمت أنه يشرب السكر بالقهوة وليس العكس ، كمادة اجتماعية متأصلة ، لأدركت ضآلة هذا المخصص . . بل هناك حرمان تام لكثير من السلع الغذائية الأساسية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر . . الموالح والدجاج مخصص فقط للمرضى بالمستشفيات ، الألبان مخصصة للأطفال دون السابعة ، البصل والثوم فبالرغم من زراعتهما بكميات وافرة فهى من « المنوعات » غير القابلة لمجرد العرض أو لمجرد التعرف عليها ، فهناك من الأجيال الحالية ما يجهلها تماماً لا لشيء إلا لأنها من الصادرات الأساسية للاتحاد السوفيتى ، ولما عرف عن السوفيت من ولع شديد بمثل هذه المحاصيل وأهميتها فى حياتهم اليومية . . . وأما المياه الغازية فهى مطلقة ولكنها فى نفس الوقت مقيدة ! مقيدة بما يسترجع من الزجاجات الفارغة . . وللمياه الغازية قصة غريبة فى كوبا . .

فلقد تعمدت الدولة إيقاف إنتاجها من المياه الغازية لمدة قاربت العام . . وعند إلقاء فيدل كاسترو لخطابه السنوى فى احتفالات الثورة لعام ١٩٦٦ طالبته الجموع المحتشدة بالعودة إلى الإنتاج ، فالمياه الغازية شىء ضرورى لحياتهم ، فهى التى تطفى نار ظمئهم بتلك البلاد الاستوائية الحارة ، خاصة وأنهم يفتقرون إلى الماء الصالح للشرب وسرعان ما أرجع السبب إلى النقص الشديد فى

العبوات الفارغة نتيجة حدوث أعطال خطيرة بأجهزة أكبر مصانع الزجاج بكوبا ، فعرض عليه المواطنون فكرة تسليم ما لديهم من زجاجات فارغة كحل مؤقت للمشكلة فرحب بالفكرة ووعدهم بتسليمها إليهم ملاً . . وقد ظل هذا الوعد حتى لحظتنا هذه يرن في آذانهم كلما جفت حلوقهم ، وما أكثر ذلك مع كل لفحة حر ، ومع تصاعد العرق على الأجساد في كل آونة ! إنه في الواقع أحد آلاف الوعود . . الوعود البراقة التي لم ولن تتحقق في أى مجال ، بل أضافت اهتزازاً تلو الاهتزاز وزعزعة تلو الزعزعة لثقة شعب في رئيس حكومته ، فلم يعد هناك من يستجيب أو حتى يتفاعل .

وفي جولة بقصر « السنيور سوارز » وبين ذكريات الماضي البعيد مررت معه بتمثال صنع من المرمر وبالحجم الطبيعي لأنثى جميلة عارية ، محاط بقوائم من الزجاج الشفاف ، وقد علمت منه أنه لصديقة إيطالية كان قد تعرف إليها وهو في الثانية والعشرين ولم يوفق إلى الزواج منها لاعتراض والده ، وفي عودة لها إلى معرضها بروما طلبت والدته من هذه الفتاة أن تعمل « موديلاً » به ونحت لها ثلاثة تماثيل كان هذا التمثال أحدها ، فلقد أهدته إلى ابنها الوحيد تعاطفاً وتقديراً لمشاعره . . وعلى سبيل المزاح مع « مارجوت » ، وكانت تشاركنا هذه الجولة ، تسألت عن مدى احتمال شعورها بالغيرة تجاه هذه الأنثى التي تعيش معها تحت سقف واحد ، ولكنها باعتداد وثقة كبيرة بالنفس أفهمتنى أنه كان في مقدور السنيور سوارز أن يتزوج ليس فقط من صاحبة التمثال بل من أية أنثى أخرى إذا ما أراد بحكم الوضع المادى والأدبى المرموق اللذين يتمتع بهما ولهذا فهي تعتقد أنها أفضلهن جميعاً لأنها الوحيدة التي استهوت وعاشت معه طوال هذه السنين دون أن تنجب له أطفالاً . . ثم إن صديقته القديمة تعيش مسجونة بين

أربعة جدران زجاجية ضيقة ، أما هي فتعيش « مسجونة » ولكن بين أربعة جدران أرحب ، وهنا كدت أنثني احتراماً وإجلالاً لفلسفتها فلم يفوتها الوصف الحقيقي للحياة المقيدة واللا إنسانية التي يعيشها غالبية أفراد الشعب الكويتي حالياً عندما عبرت ولا إردايا عن « سجنها » داخل أربعة جدران أرحب . . فهي لا تقصد بالقطع القصر الذي تعيش فيه وإنما تقصد فقدان حرية الإرادة وحققها في الحياة الحرة الشريفة .

وكوبا في الواقع سجن كبير قد ملئ بالأبرياء والشرفاء فذاك « دكتور ريفيرا » ( ٦٠ سنة ) أحد الأطباء الجراحين والبارزين فيما قبل الثورة الكويتية ، قد بدأ يتحدث معي بعد اطمئنان بالغ وبعد فترة زمنية غير قصيرة عرف عني فيها - بل تأكد بصفة قاطعة - أنه ليس لدى أى ميول سياسية على الإطلاق وإنما الذي يحدد مدى حكمي على الأمور هو التحليل العلمي العميق والدراسة الفكرية المقتنة وغير المنحازة ، وهذا في الواقع هو أسلوب كل من يعمل في مجال البحث العلمي الخلاق لأنه يعتمد في المقام الأول على التعرف الدقيق على الأسباب الحقيقية للمشكلة المعنية حتى يكون البحث عن الحل بعد ذلك مجدياً وقاطعاً ، وما قد يكون إيجابياً لمشكلة ما قد يكون سلبياً لأخرى .

ولقد فهمت من الدكتور ريفيرا أنه في انتظار موافقة مسئولى الهجرة بالدولة على طلب هجرته وأسرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد تقدم بهذا الطلب منذ ٧ سنوات مضت وقد تمتد إلى أكثر ، ودائماً ما يتم التبليغ بهذه الموافقة بصورة مفاجئة ليتم الرحيل ربما بين ليلة وضحاها ، وأنه من شروط الموافقة عدم مغادرة البلاد بشهاداته أو بأوراقه الدالة على خبرته الفنية في عمله أو مجال تخصصه والتي يحتاج إليها للدولة على مواصلة مهنة الطب ببلد المهجر .

والسريا عزيزى القارئ من وراء تأخير إصدار الموافقة طوال هذه السنوات مع وضع هذا القيد العجيب - واضح . . فلا ترحمه الدولة ولا تترك له رحمة الله . . فحرمانه من مستندات التخصص وشهاداته تدفع به إلى عمل قد يكون عضلياً ومع السن المتقدم يفقد هذا العمل المضنى أيضاً ، ومن هنا لا يجد أية فرصة للبقاء ببلد المهجر . . ولذلك راح يتوسل إلى مستعظماً أن أرسل أوراقه إلى أحد أصدقائه من أهل المكسيك حتى يمكنه بعد مغادرة البلاد أن يتحصل عليها منه كى يبدأ حياته من جديد وليعيش بمهنته الشريفة فى بلد المهجر . .

وبالمناسبة فإن « ميامى » بفلوريدا تضم حالياً جالية ضخمة من الأفراد والعائلات الكوبية أبت أن تعيش فى بلادها بعد إعلان الشيوعية كنظام سياسى للدولة فى عام ١٩٦٤ . . ولقد شجعت الولايات المتحدة الأمريكية - ومنذ الوهلة الأولى - الهجرة إليها من الأفراد الكوبيين وخاصة المهنيين منهم وأرباب الحرف وذوى الخبرات الفنية فى كل قطاعات الإنتاج والخدمات . . بل خصصت خطاً للطيران اليومى وبالمجان بين شاطئى « بكوبا » و « ميامى » بفلوريدا لمسافة لا تزيد عن ٩٠ ميلاً . . ولما أحست الدولة الكوبية باستنزاف الكثير من أبنائها من الفنانين والشباب فيما لا يزيد عن عام واحد بدأت تضع القيود على الهجرة . . ولكن بعد فوات الأوان ! فلم يعد بكوبا اليوم من ذوى الخبرة والمثقفين إلا القليل والنادر ، وأصبحت الغالبية العظمى من مسئولى الدولة فى مواقع العمل لا تتعدى حديثى السن ، بل معدومى الكفاءة والخبرة من أعضاء الحزب الشيوعى الكوبى . . ولتعجب كثيراً يا عزيزى القارئ عندما تعلم أن الرئيس الحالى للجامعة هافانا « العريقة وذات السمعة العلمية فيما مضى » شاب لم يتجاوز الثلاثين من العمر ، ولتعجب أكثر عندما تعلم مثلاً أن رئيس



القسم الذى كنت أعمل فيه بكلية العلوم طالبة بالسنة النهائية ولا يزيد سنها عن الثانية والعشرين برغم وجود من يكبرها سنًا ، بل من الحريجين حقًا ، ولقد تزداد عجبًا أن تعرف أن الطالب بالجامعة قد يكون مسئولًا عن التدريس بها أيضًا نتيجة النقص الحالى فى عدد أعضاء هيئة التدريس ، فطالب السنوات النهائية يقوم بالتدريس لطلاب السنوات الأدنى ، فلا هو بطالب ذى تحصيل ولا هو بمدرس كفء . . وهكذا تسير الأمور فى جميع قطاعات وأجهزة الدولة ، فالسند الوحيد للتنصيب بالوظائف الكبرى والمسئولة هو انتماء الفرد للحزب الشيوعى الحاكم ، وشتان بين الأفراد « الحزبيين » و « اللاحزبيين » . . والانتماء لعضوية الحزب ليس اختياراً حسبما يرتضيه المواطن بمحض رغبته بل تكليفاً ، وللتكليف قصة طويلة . . بدايتها منحة يطلق عليها « منحة السعادة » !



## منحة السعادة في بلاد الشقاء !

هى منحة تقدمها الدولة لكل عروسين جدد ، مؤداها أن يقضى العروسان ثلاثة أيام وليالها بأحد الفنادق الكبيرة حسبما يقع اختيارهما عليه . . يفعلان كيفما يحلو لهما ويأكلان ويشربان كيفما تشهى أنفسهما دون أى قيد أو حدود . . وفى نهاية الفترة يتم اختيار كل منهما لهدية واحدة ولتكن ماكينه حلقة ، وبلوزة وما شابه .

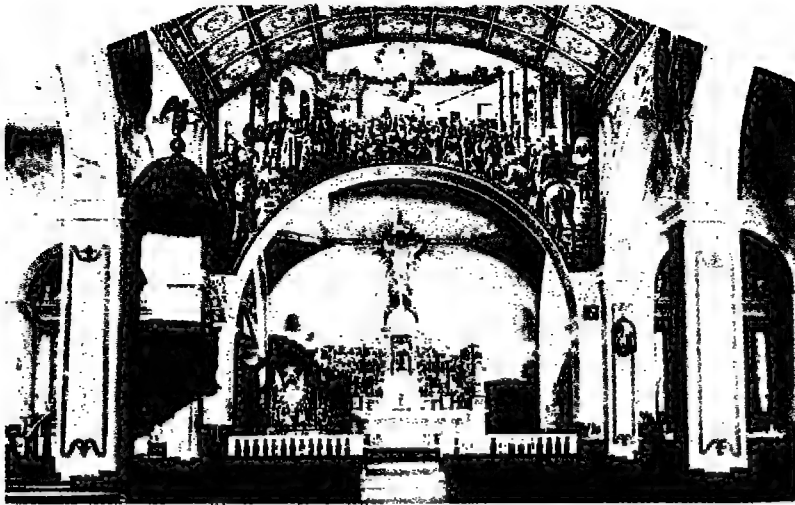
ولقد شجعت هذه المنحة الشباب من الجنسين على الزواج لمجرد الاستمتاع ولو المؤقت بالحياة . . فليس هناك دافع من الحب أو الهيام ، بل هناك دافع من العوز والفقر المشترك . . ولهذا قد يشتد الخلاف بعد انقضاء مدة المنحة وينفصلان ، وسرعان ما يتزوج كل منهما بفرد آخر ، وهكذا تتفرع العملية ويتسع مداها ، وقد عرفت عن إحدى السيدات اللائى عملن معى بالجامعة أنها قد تزوجت من ٧ رجال وكانت لم تتجاوز وقت ذاك الخامسة والعشرين من عمرها . .

وقد يترتب بداهة على هذه الزيجات « المتعددة » إنجاب أطفال وهذا هو بيت القصيد والمغزى الأساسى لمنحة السعادة !

فما مآل تلك الأطفال ؟ الآباء فى انفصال مستمر والأسرة لا رابط ولا استقرار لها . . إذن فالدولة هى الراعية لهؤلاء الأطفال فهم أولادها أو بالأصح أولاد « فيدل كاسترو » ويطلق عليهم بالإسبانية « البيكادوز » .

ولقد حققت لهم الدولة بيوتاً تستوعبهم فى جميع مراحل نموهم المختلفة منذ الحضانة حتى التخرج فى الجامعة . . وهذه البيوت هى فى الواقع قصور فخمة مما استحوذت عليها الدولة من الأثرياء . . يعيشون فيها معيشة الأمراء ، ويأكلون ما لذ وطاب ، ملاعقهم وأطباقهم من الفضة « الاستيرلنج » وكؤوس شرابهم من الكريستال « البكره » ، يرتدون الحرير ويفترشون أفرش القراش ، لهم كل اللهو والمرح ولا يعترفون بلوم أو سأم . . فهم نتاج منحة السعادة ويجب أن يظلوا فى تلك السعادة . . .

وتنشئهم الدولة نشأة عسكرية منذ الصغر ، وبالاغترال التام عن المجتمع والأهل يلقنون - وباطمئنان بالغ - كل ما يصوره لهم قادة الحزب الشيوعى الكوبى . . إيمان صادق بالسوفيت وبالمبادئ الأساسية للشيوعية ، بل فى المقدمة وقبل أى شىء الإيمان الراسخ والصادق بشخصية فيدل كاسترو ، فهو منقذ البشرية من الدمار والفقر والعدو ، منقذ البشرية من الاستعباد والسيطرة ، منقذ البشرية من ويلات الروحانيات والأديان ( انظر الشكل رقم ٥ ) ، فالإنسان صانعها أما كاسترو فهو الإله الأكبر والحجيرة الأوحى ، فهو المحرر للشعوب من براثن الانتهازيين بكل بقاع الدنيا ، وهو دافع النهضة العلمية ،



(شكل ٥) - الكنيسة « الرئيسية » بمدينة « بياصو » الكويتية من الداخل ، والكنيسة واحدة من الآلاف التي أغلقت الآن تدعيماً للإلحاد وعقارة الأديان وكيئاً لحرية العقيدة .

ومدعم التكنولوجيات ، ورائد نحو الأمية . . إلخ ما يتردد في معجم الحزب الشيوعي الكويتي !

وتأكيداً لألوهية فيدل كاسترو لدى النشء والأجيال فإن لجنة خاصة من وزارة التعليم تتجه في اليوم الأول من العام الدراسي إلى مدارس المرحلة الابتدائية لتلتقي بالأطفال الجدد بالصف الأول ، سواء كانوا من « البيكادوز » أبناء الدولة أو غيرهم من أبناء المدارس العامة ، وتطلب منهم كل على حدة أن يغمض عينيه ليطلب من « الله » تحقيق هدية يتمناها ، ويفتح عينيه لا يجد بالطبع هذه الهدية . .

وتكون اللجنة قد رصدت ما خصصه الأطفال من تلك الهدايا قرين كل

اسم منهم ، وفي يوم لاحق تعاد الكرة وقد أحضرت اللجنة بمجمل هذه الهدايا لتسأل كلاً منهم أن يغمض عينيه وليتوسل هذه المرة إلى « كاسترو » كى تتحقق أمنيته فهو الإله الحق ، وهو الخير ذاته ، وهنا يفتح الطفل ناظره ليجد الهدية التى تمنّاها ماثلة بين يديه ! .

هكذا يتلقى الطفل أول دروسه بالإلحاد والإيمان . . بالإلحاد لأنه لغى وجود الله ، وبالإيمان بفيدل كاسترو لأنه الملكوت الحق ولاسواه ، وبهذا ينشأ الطفل وترعرع معه هذه المعتقدات ، وتعتبر التقارير الواردة من مشرفى المدارس ومفتشى وزارة التعليم ولجان الحزب الشيوعى الكوبى هى الفيصل النهائى لترشيحه من عدمه لعضوية الحزب ، فإن كان مخلصاً وقيّاً فى المقام الأول لشخص كاسترو كلف عضواً عاملاً فى الحزب وكان من الصديقين ذوى السلطان والجاه ، أما إذا اهتزت تقاريره كان من الضالين ذوى الذلة والمسكنة !

وإذا تفحصنا عبارة « منحة السعادة » نجد أنها تصريح ضمنى من الدولة - حسبما يشير المعنى - بأن الحياة الكوبية فى مجملها حياة شقاء ومذلة ، وأن الدولة تهب الأفراد تلك الأيام الثلاث السعيدة كمنحة للخروج وقتياً من هذه المحنة . . ولو تعمقنا فى مضمون « منحة السعادة » لوقفنا على حقيقة تجسيدها « للماديات » تطبيقاً لنظرية « المادية الجدلية » لكارل ماركس ومنافاتها تماماً « للروحانيات » أو « المذهب المثالى » . . فلقد جعلوا من الزواج متعة للجسد ، ونفوا قدسية الحب والعواطف فيه ، وجعلوا من الأبناء مجرد نتاج وزيادة تعداد ونفوا الرابطة المقدسة والروحية بين الآباء والأبناء . . بثوا عن طريقها الإلحاد والعبودية المادية « لفيدل كاسترو » فهو مانح السعادة وعاهل هؤلاء الأبناء ، ونفوا العلاقة الروحانية والأبدية بينهم وبين الخالق عز وجل . .

## محو الأمية ودكتاتورية كاسترو

لعل الثورة المصرية في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كانت نموذجاً حياً لفيدل كاسترو عند قيامه بثورته في ٢٦ يوليو ١٩٥٩ ، فلقد كانت مبادئها الواضحة تأخذ لباب فكره حتى إنه أراد من توقيت قيام الثورة المصرية توقيتاً لقيام ثورته الكويتية ولكنه لم يوفق إلا بفارق ثلاثة أيام فقط ، ولإيمانه خلال سنوات الثورة الأولى - وقبل تغلغل النفوذ السوفيتي في الحكم بعد معركة « خليج الخنازير » المشهورة في أواخر عام ١٩٦١ - بضرورة خلق وعي جماهيري عام كمنطلق يساعد على تقدم ورفعة شأن بلاده ، فقد حرص منذ اللحظة الأولى على « محو أمية الشعب الكويتي » ، وقد كان له بالفعل ما أراد . . ففي عام واحد ( عام ١٩٦١ ) تمكن فيدل كاسترو أن يفاجئ العالم أجمع بأعظم تجربة ناجحة عرفها التاريخ الحديث في مجال « محو الأمية » ، ولربما سيذكر له التاريخ هذا العمل الجليل كعمل قومي مجيد بل « الأوحده » لبلاده منذ توليه سلطة الحكم في البلاد ، ولكن . .

بنظرة تحليلية فاحصة للوضع الاجتماعى الحالى ومظاهر الحياة هناك ولنظام الحكم الدكتاتورى الذى يعم البلاد وخاصة للدكتاتورية كاسترو الشخصية والتى فاقت دكتاتورية كل من « هتلر » و « موسيلينى » - يمكن التعرف وببساطة على أن محو أمية الشعب الكوبى كانت من العوامل الرئيسية التى ساهمت فى ترسيخ وتدعيم هذه الدكتاتورية .

فكاسترو - فى حقيقة الأمر - يحكم شعباً ضد إرادته الحرة ، بل ضد طبيعة البشر.. يحكم شعباً من خلال سيطرة واستغلال أجنبي لأسياد وقادة بالكرملين.. فكيف يتم له ذلك إن لم يكن بالدكتاتورية وبالحديد والنار ، وخاصة مع شعب لم تمنح أميته أبجدياً فحسب بل - كما أيقنت - ثقافياً بالدرجة الأولى .. إنه يُعامل شعباً مثقفاً يمكنه بسهولة ويسر تحليل الأمور ، ويمكنه لو أعطى فرصة الحكم الديمقراطى والتعبير الحر عن إرادته أن يناقشه ، بل يرده إلى صوابه ، ففidel لا يريد ذلك ، لا يريد أن يسأله أحد أو حتى ينطق ولو بلفظة بوركيه ؟ أى « لماذا ؟ » .. فهو يريد أن يقول « كن ، فيكون » .

إنه - فى اعتقاده الشخصى - لنادم الآن على « اقترافه » هذا العمل القومى العظيم .. ألا وهو محو الأمية ! فلم يكن يتوقع أن ذلك سيصبح يوماً ما عاملاً من عوامل الإحساس العام بل التيقن التام بدكتاتوريته ويمدى استغلال قادة موسكولمقدرات الشعب الكوبى ، ولو كان يعلم ذلك مسبقاً لما أقدم عليه بالمرّة .. وربما كان ندمه هذا هو السبب الرئيسى فيما بعد فى عزل شعبه وجزيته عن العالم الخارجى بثقافته المتعددة وتطورات الاقتصادى والاجتماعية المختلفة فى محاولة للحض ثقافة الشعب الكوبى ، والعمل على رده إلى دياجير الجهالة ، بما يكفل الطمأنينة ويضمن الرضا والاستسلام إلى الأبد .



## الستار الحديدي وعزلة الشعب الكوي عن العالم

لقد ألغيت السياحة بكوبا برغم أنها كانت مصدراً رئيسياً بل وكناً هاماً  
للدخل القومي الكوي قبل الثورة ، كما حرصت الرقابة على المصنفات الفنية على  
اختيار نوعيات معينة من الأفلام الأجنبية التي تعرض بالبلاد ، فكلها تدور إما  
في فلك التاريخ القديم أو الانعزالية التامة عن مظاهر التطور والمدنية الحديثة مثل  
أفلام « حصار طروادة » ، « سجين زنذا » ، « أحلب نوتردام » ، « المومياء »  
المصري والذي تدور حوادثه ، كما تعلم ، بعيداً عن العمران ! وقد حدث ذات  
أمسية أن اصطحبت قرينتي لمشاهدة فيلم « الملك الأزرق » وهو من الأفلام  
الأمريكية التي لا تزال أحداثه وقصته الخالدة تعلق بذاكرة الكثيرين منذ  
الخمسينات ، ولقد أدهشنا أن يتم عرض الفيلم فيما لا يزيد عن ٤٠ دقيقة ، فقد  
حرصت الرقابة الفنية بالطبع على استقطاب كل ما يثير في نفس المتفرج من  
مشجون المرح وما قد يسيل اللعاب ، فالفيلم تدور معظم حوادثه داخل النوادي  
الليلية الأمريكية بما يكثر فيها من مظاهر الثراء واللهو والاستمتاع بصنوف الطعام

والشراب ، وهي بالطبع من المنوعات بالنسبة لأفراد الشعب الكوبي ! وقد حدث مرة وفي أثناء مشاهدتنا لأحد الأفلام - حفاظاً على تسلسل الأحداث - أن اضطر الرقيب إلى عدم حذف مشهد ظهرت به مائدة وعليها أحد الديوك الشهية ، فسأل لاعب الرواد بل سمعنا أصوات « الروال » تنبعث من أفواههم ، صغاراً كانوا أو كباراً ، نساءً أو رجالاً .

وامتداداً لهذه العزلة القاتلة ، فهناك تعليمات مشددة بعدم الاختلاط حتى بالأجانب المقيمين داخل كوبا ، فبالاختلاط يتعرفون منهم على أحوال بلادهم السياسية والاقتصادية وظروف المعيشة فيها وما قد يطرأ عليها من تقدم أو تطور عصري تكنولوجي . . فلا غربة إذن أن تجد من يعملون تحت إشرافى العلمى وهم يتجنبون ملاقاتى خارج أسوار الجامعة ، وكأننى « حيوان أجرب » ، ولا يعترفون بإقامة علاقات اجتماعية معى أو أسرقى !

وأتذكر مرة فى بداية قدومى إلى هافانا أن وجهت الدعوة إليهم لقضاء أمسية بمسكنى لتناول العشاء مع أسرقى على أنغام الموسيقى الشرقية . . ولم أفهم حين ذاك معنى تلك النظرات الزائغة التى راحوا يتبادلونها إلا عندما جاءنى أحدهم فى اليوم السابق للموعد المحدد ليعتذر عن عدم إمكانهم الحضور لسبب لم أقتنع به ، ومع كل فقد تركت لهم حرية تحديده فى موعد لاحق . . وبانقضاء فترة امتدت إلى ما يزيد عن الشهر - بما أنسانى هذا الموضوع تماماً - فوجئت بتحديد الموعد فى اليوم التالى لما أعلمت فيه ، وقد فهمت فيما بعد أنه من الحتم فى مثل هذه الظروف الاضطرابية والاستثنائية أن يحصلوا على « ترخيص » رسمى بتلك الزيارة ، بدايته إخطار رئيس القسم الذى نعمل فيه بالجامعة لينتهى بموافقة « رؤول كاسترو » شخصياً وهو شقيق لفيدل كاسترو حيث يدخل هذا

الموضوع في نطاق اختصاصاته ومسئوليته . . وللحصول على موافقته لابد أن تسير الأمور خلال قنوات إدارية طويلة ومعقدة للغاية تضمن اتخاذ كل التدابير والإجراءات الكفيلة والمحقة لإحكام الرقابة والإنصات داخل مسكني وخارجه ، وكتضمن لهذه التدابير فلقد فوجئت بمصاحبتهم لشخصين لم يسبق لي مشاهدتها ، وقيل لي إنها زميلان لهم بأحد الأقسام الأخرى بالجامعة ، ولهما رغبة ملحة في استمتاعها بالموسيقى الشرقية وما قد يقدم من أطباق مصرية . . وكان لهما بالطبع ما أرادوا .

ودار الحديث في مجمله بالطبع في مثل هذا الحفل المتواضع عن تباين الموسيقى في الغرب والشرق ، ولو أنني أفردت بعض الحديث عما أبتثق حول تاريخ السيمفونية وتطورها منذ بدايتها كمجرد « افتتاحية موسيقية » للاورات الايطالية والفرنسية والتي تأثرت بالتالي بأسلوب الغناء العربي ، ثم « السرينادات » التي كانت تعزف في ليالى الصيف البديعة بفينا بالنمسا تحت نوافذ الحسنات ، « السوناتات » « ليوحنا سباستيان » والد « باخ » ، وكان للنأى والكان العربي أثرهما البالغ والأساسي في تطور السيمفونية إلى أن أخذت صورتها النهائية في المارموني « أى التوافق الموسيقى » في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كما هو واضح في موسيقى جوزيف هايدن ، موزار ، فان بهوفن ، بما يميزها الآن من الموسيقى الشرقية والتي لا تلتزم بهذا التوافق .

وأتذكر أن أقحم أحد الغربيين نفسه عندئذ بالحديث فجأة عن محو أمية الشعب الكوي ودور كاسترو الكبير في نشر الثقافة في ربوع الجزيرة حتى إن الكثيرين من سكان « السيرامسترا » والذين عاشوا في جبالها في عزلة تامة عن مظاهر المدنية والحياة العصرية قد اعتقدوا عندما جاءوا إلى هافانا العاصمة لأول

مرة في حياتهم ورأوا « النجف الكهربائي » يتألق في مبانيها ليلاً أنها « النجوم »  
بالسماء وقد اقتربت من الأرض ! ولولا زعامة كاسترو وفضل الثورة الكوبية  
العظيمة ما عرف هؤلاء الناس معنى وطعم الحياة البشرية الحقيقية التي حرموا  
منها هم وأسلافهم زماناً طويلاً !

وعلى الفور ، أيقنت أن هذا الحديث « المفتعل » ما هو في الواقع إلا بداية  
لاستدراجي في جدال قد يؤدي إلى الخوض في أمور سياسية أنا في غنى عنها ،  
بل تتنافى بالطبع مع قيود وظيفتي كمخبر « دولي » ، ولهذا لم أنبس ببنت شفة ،  
وكل ما أبديته أنني أومأت برأسي وكأنني أعبر عن مدى الدهشة والغربة لهذا  
الوضع الشاذ ، وبما قد يوحي أنني قد أصدقته القول ! . . ومن هنا لم أعطه  
الفرصة للاستطراد بل انتقلت مباشرة بالحديث إلى موضوع آخر وهو الرقصات  
وكيف أن الرقص « الشرقي » يتميز أساساً بتحريك الأجزاء الدنيا من الجسم ،  
على النقيض من الرقص « الهندي » والذي يعتمد على الأجزاء العليا ، وسرعان  
ما علقّت إحدى الحاضرات بأن « الكوبي » أو الرقص اللاتيني فهو يجمع ما بين  
الاثنتين أي بتحريك كل أجزاء الجسم ، ومع الضحكات الرنانة والتي أعقبت  
هذا التعليق المعبر عن الحقيقة استأذن الغريبان في الانصراف ، وما لبث أن  
أعقبهما الجميع وكأنهما قد أعطيا الإشارة والتنبيه بإنهاء وقت الزيارة أو بالأصح  
فض هذا « التجمهر » !

وكانت الساعه لم تتجاوز بعد العاشرة .

## الدلة والمسكنة نعم طوائف الشعب !

وإذا كان فيدل كاسترو قد قام بثورته ضد حكم « باتستا » احتجاجاً على الظلم والتعسف وانتشار الرشوة والفساد والمحسوبية ، وإنقاذاً لجموع الشعب الكوبي من الإقطاع والاستغلال ، وخاصة للطبقات الكادحة من المثقفين والمهنيين والعمال وصغار الفلاحين ، ( كما جاء في كتابه « سيفغري التاريخ » والذي صدر في كوبا عام ١٩٦٩ ) عازماً على حل مشاكل الجماهير في الزراعة والصناعة والإسكان البطالة والتعليم والصحة مع إعادة الحريات والديمقراطية السياسية استناداً على خمسة قوانين ثورية تضمنتها وثيقة قيام الثورة منذ معركة « معسكرات المونكادا » والتي باءت بالهزيمة والزج به في السجن . . فلقد حاد كلية عن تحقيق ذلك وكان للنفوذ السوفيتي في الحكم بعد معركة « خليج الخنازير » كما أشرنا سلفاً الأثر الكبير والبالغ في القضاء على كل القيم الإنسانية بل سارت الحياة الكوبية في طريق مسدود تضاعفت فيه كل صور الظلم والفساد ، بل الامتهان لكرامة الإنسان الكوبي فذاق الأمرين . . ذاق الظلم بالاستبداد ،

والرشوة بالعوز ، والبطالة بالجوع الزؤام ، والاستغلال بالاستعباد ، وتفاقت المشاكل نتيجة لإقرار واستتباب نظام الحكم الشيوعي الدكتاتوري بالبلاد ، وتحويل كل الطاقات المادية والبشرية لخدمة مصالح السوفيت ومن يساندونهم من السلطة الحاكمة وكبار رجال الحزب الشيوعي الكوي . . وإذا كان المثقفون والمهنيون والعمال وصغار الفلاحين قد ألمّ بهم بعض قصور الحكم السابق لفيدل كاسترو فهم يعانون اليوم أضعاف الأضعاف ، بل الكبت السياسي وكل صنوف الإرهاب والاستتراف الروحي والمادي ، ولهذا فقد افتقد الشعب الكوي غالبية هذه الفئات الكادحة بالهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبعض بلدان أوروبا وخاصة إسبانيا ، بعد تفاقم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بكوبا ، بما يستحيل معها مجرد استنشاق الهواء أو التظلل بالغابات ، فقد تلوّث كل أرجائها بل سمائها بكل أنواع السموم والمويقات ، واندلعت من كل فج كل صنوف الأفاعي والوحوش الكاسرة التي راحت تنهش أبدان الفضيلة وروحانيات الحب والتعايش السلمي . . نفوس قد ملأها الحقد وأعمتها المملذات والشهوات عن بصيرة الإيمان والإخاء ، قيود مكبلة للأطراف تمنع حتى التضرع إلى الخالق عزّ وجلّ ، وتقذف بالأبرياء وطالبي الرحمة إلى نار متقدة ، تعلقو ألسنتها لتصيب وتقضي على كل ما قد يتبقى حولها من الصخر والفولاذ . . لقد تحجرت القلوب وغضت الأبصار عن عيون زائغة وأجساد محطمة ، تطلب الرحمة وتشحذ العطف ، وتنتظر الغوث من العرى والفضى ، والانتشال من وهادات الظلم والتعسف وتحقيق الشيء اليسير من الوعود الخادعة والبراقة التي سرى صداها ليملاً كل مشارق الأرض ومغاريها ولو بإلقاء البعض النذير مما قد امتلأت به بطون القادة وأولى الأمر من رجال الحزب الشيوعي الكوي بما قد

يبعث ببصيص الأمل في عودة الروح والنتام الجروح .  
 وإذا كان « السنيور سوارز » وأمثاله من الأثرياء قد حق عليهم الذلة  
 والمسكنة ، فإنهم - كما رأينا - يعيشون حالاً البقية الباقية من حياتهم على  
 ما تحمله صدورهم وعقولهم من أنقاض الماضي ، وقد تعينهم هذه الأنقاض  
 العاتية القوية على تحمل الصعاب - بما تضيئ الأبواب - بما تحمله من ذكرى  
 تساعدهم على السلوان وعلى التغلب على المشاق - بما تكل لها الأجساد - بما  
 تحويه من أحلام اليقظة فهي لهم دائماً بالمرصاد يرتشفون منها ماء الحياة  
 ويستطيون فيها الهواء .

إذن ، فما ذنب تلك الأجيال التي استقبلتها الحياة بكل ما تحمل من  
 أوهان ، لا ماضي يؤازرها ولا حاضر يقيمها ، لا ذكرى تنسبها ولا حقيقة  
 تعينها .

### الطفولة المعبدة ١

فها هو ذا الطفل « ريكاردو » ( ٩ سنوات ) يهوى الهجيء مع بعض الرفاق  
 إلى « حى ميرامار » كي يجدوا الفرصة ليتلاقوا مع أمثالهم من أبناء الأجانب حيثما  
 ينطلقون لهواً ولعباً ، وقد يحالفهم الحظ أحياناً فيقتاتون منهم بعضاً من الحلوى  
 أو ما شابه ، وكثيراً ما تردهم على أعقابهم دوريات الأمن التي تجوب الشوارع  
 فيندبون حظهم ويلعنون مأساتهم .

وذات يوم وقد حمل ابني بعضاً من « الطوفى » فجاءه « ريكاردو » هذا  
 يستعطفه في قطعة منها أو اثنتين يتقاسمها هو ورفاقه وكانوا ثلاثة ، وما إن هم  
 ابني بإعطائهم كل ما في جعبته منها حتى فوجئ بأحدهم يقدم إليه العويته

« كمقايضة » ، فتملكه حزن شديد وشعر بمزيد من الحنين والعطف على هؤلاء الأصدقاء البؤساء ، فقد أرادوا أن يضحوا بألعوبتهم « الفريدة » في سبيل بعض الحلوى البسيطة !

إنها حقاً متواضعة ومن النوع السائد في البلاد . . فهي صناعة كويية ، وإن اختلفت ألوانها ، فالطعم واحد ، مجرد أقراص سكرية ملونة . وهنا رفض ابني ويكل إباء هذا العرض « المغرى » وترك لهم الحلوى دون مقابل . . مصمماً - وجدانياً وفي قرارة نفسه - على المزيد من العطاء ، وخاصة مما ستتناوله يداه من مختلف أصناف الحلوى والشيكولاتة الراقية التي ما زلنا - وقت ذاك - في انتظار وصولها من « الدانيمرك » ضمن شحنة قد سبق لنا أن أرسلنا في طلب استيرادها ، فلقد كان مسموحاً لنا كخبراء بمنظمة دولية استيراد كل احتياجاتنا من الخارج معفاة من الضرائب والقيود الجمركية .

وأغلب الظن أنه كان يعلم مدى الحرمان الذي يعيشه هؤلاء الأطفال ، ويعلم أيضاً أن نصيب كل طفل من هذه الأقراص السكرية سبعة أقراص فقط أسبوعياً ، كما يحدده « دفتر تموين » أسرته . . كما أنه يعرف جيداً مدى ما يتكبده الآباء في سبيل شراء مثل هذه الألعاب ، فقد يصل سعرها المحلي إلى ما يقرب من ٤٠٠ « بسو » كويي ( أى ما يعادل ٤٠٠ دولار أمريكي ) برغم أنها ، يا عزيزي القارئ ، صناعة صينية ولا تتعدى ذلك النوع المعروف « بالألحوبة ذات الحركة الاحتكاكية » وبما لا يزيد سعرها في محلاتنا التجارية هنا في مصر عن جنينين أو ثلاثة على أكثر تقدير . . هذا ولا يصح لمثل هذا الأب بشراء ما قد يحتاج إليه من أمثال هذه السلع إلا إذا اعتبر من الـ « ديستنجويدوز » أى « الممتازين » حسبما تشير التقارير السنوية إليه . . وهنا أحب أن أشير إلى أن



الفرد الكوي لا يعد ممتازاً إلا إذا حرص على حضور الاجتماعات الدورية والعديدة التي ينظمها الحزب الشيوعي الكوي في مكان عمله أو خارجه ، بالإضافة إلى مواظبته على القيام بما يسمى « بالعمل التطوعي » ، وسأأتى الحديث عنه فيما بعد ، فهذه الأنشطة قد تمثل ما يقرب من ٨٠٪ من مجمل التقدير السنوي بما لا يترك حافزاً لعمله الأصلي ! .

وبعودة مليئة بالحسرة والكآبة راح ابني يناقشني فيما حدث بينه وبين أصدقائه من الكويين ، وكأنه يستمحي عذراً لرفضه تلك « الغنيمة » مقابل ما قدمه لهم من حلوى ، فلقد أحسست بالمرارة تعلى أسارير وجهي ، وبالحزن يدب في قلبي ، بل طفرت عيناي بالدموع حيناً عبر ابني « الطفل » عن ارتياحه الكامل لهذا التصرف الإنساني ورفضه للمقابل « المادي » فالحياة في أعماقها وأساسياتها « روحانيات » قبل أن تكون « ماديات » ، فإن المقابل كانت سعادته برؤية هؤلاء الأطفال وقد انتشع عن وجوههم الوجوم ليحل محله الجهور ولو للحظة بسيطة لشيء بسيط ! وهنا تأكد لي أن ما بدر منه كان إحساساً لا إرادياً بمدى الظلم الواقع على هؤلاء الأطفال الأبرياء ، وأنه كان إحساساً عطوفاً من مجرد إنسان لأخيه الإنسان برغم أنه يعلم أنهم « علمانيون » لا يعترفون بوجود الخالق . . فالعمل للإنسان والدين لله وحده . . ولعلك تعلم ، يا عزيزي القارئ ، أن الحرمان لشيء خطير وخطير جداً ، فهو يدفع دائماً إلى الحقد ، والحقد بالتالي يؤدي إلى الإيذاء . . وقد يؤكد قولي هذا موقفان جرت أحداثهما على أرض ومسرّح تلك الجزيرة المنكوبة . . أولهما ، عندما خرج طفلي ليتعرف إلى البعض من أبناء الأجانب ممن يجاوروننا بحي مرامار ، وكان ذلك بعد قدومنا ببضعة أيام إلى هافانا ، ولكم كانت دهشتنا بالغة أن عاد يهرول بعد

دقائق معدودة ، وقد تمزقت ملابسه وعلت وجهه بعض الخدوش الدامية . .  
 فلقد كان أول لقاء له بريكاردو ورفاقه ، ويبدو أنه كان يجهل تماماً أن هذه  
 « الحفاوة » لمن أولى سمات التعارف الكوي ! فلكى يتقبلوه صديقاً لا بد أن يتفق  
 معهم في المظهر العام ، ولعلهم قد أصدروا قرارهم منذ الوهلة الأولى بضمه إلى  
 رفقتهم ، فوفروا علينا عناء البحث له عن ثياب رثة أو أسمال بالية تروق في  
 أعينهم ، ولا تبعث في نفوسهم تلك المشاعر العدوانية . . وحتى لا تنفصم عرى  
 هذه الصداقة فقد حرص طفلي دائماً على ارتداء ما قد أسميناه « بالملابس  
 الكوية » !

وثانيهما ، عندما خرج ابن لأحد أفراد العاملين بسفارتنا ليشترك الأصدقاء  
 الركوب « بدراجة » قد استوردها له والده لئلا تطلب منه أحد الأطفال من  
 زمرة « ريكاردو » أن يستعملها لجولة قصيرة واحدة ، وما إن تملكها يدها حتى  
 راح يحوب بها الجولة تلو الأخرى بما زاد عن العشر . . ولما ضاق بالابن اضطرب  
 في النهاية إلى نهره واسترداها ، وما لبث أن وجد نفسه فريسة شهية « لكلب »  
 ضخم شرس كان يصططحه « كارلوس » أحياناً عندما يجرى إلى حي ميرامار لعله  
 يجد في نفايات « البيكادوز » مرتعاً خصباً يعوضه الكثير عن فترات الجوع التي  
 غالباً ما تطول . . فلقد استشاط الطفل غضباً وامتلاً حقداً ولم يكد أن يصبح  
 بلفظة « كوهيلو » ( أى أمسك به ) حتى انقض الكلب على الابن انقضاض  
 الأسد ويبدو أن بدانة الابن كانت كافية ، بل مغرية كى ينفذ الكلب هذا الأمر  
 دون هواده ! فلقد تشبث أنيابه « بسمانة » رجل الابن ولم تركها إلا وقد  
 انتزعت جزءاً منها لينعطف بها الكلب ويلتهمها بعيداً عن الصراخ والعويل الذى  
 انبعث من الابن المسكين ليملاً أرجاء حي ميرامار صراخاً وأنياباً . .

لقد كاد يفقد الابن ساقه لما ألم بها من مضاعفات خطيرة وجمة لولا أن طلب والده من الحكومة المصرية نقله للعمل بإحدى سفارتنا بدول أوروبا لمداركة أمر علاجه بها ، وقد استجيب إلى طلبه فوراً تاركاً الجزيرة بكل ما فيها من أهوال وأمور عجاب !

### المثقفون والمهنيون يتضورون جوعاً !

. . وهذه هي الطيبة « أوديسا » ( ٣٥ سنة ) والتي جاءت إلى مسكتنا « خلصة » كى تعالج وترعى قرينتى التى أصيبت فجأة بأحد أمراض الحساسية ، والذي يصاب به عدد غير قليل من سكان الجزيرة نتيجة لارتفاع درجات الحرارة والملوحة والرطوبة النسبية التى قد تصل إلى حد التشبع فى معظم أيام السنة بهافانا ، بالإضافة إلى كثرة حبوب اللقاح التى تتطاير فى الجو قادمة من الغابات المتبقية والتى تحيط بهافانا . فلقد قاست قرينتى الكثير من هذا المرض العضال ، ومراراً نصحتها الأطباء بالمستشفى المخصص للخبراء الأجانب بترك الجزيرة كعلاج أكيد لهذا المرض ، ولكنها أبت أن تتركنى وحيداً بهذا البلد العجيب أودى واجباتى الوظيفية تحت ظروف معيشية ونفسية لم أعدها من قبل . . وهنا كان لزاماً عليها أن تتوجه يومياً إلى مقر المستشفى لتتناول « مصلاً » خاصاً قد يساعدها على تخفيف حدة هذا المرض ، مما كان يضطرنى إلى توصيلها وإرجاعها بسيارتى « الخاصة » بما لا يدع لى وقتاً كافياً للعمل . . حقيقة أن المستشفى يبعد حيث نسكن بنحو ٤٥ كيلومتراً ولكن تلك المسافة لم تكن لتثقل أى مشكلة لنا على الإطلاق ، فنظام المرور بهافانا ، بل بالجزيرة كلها ، يعد من أرقى النظم العالمية ، فلا يزال يحتفظ بطابع وبصمات الولايات المتحدة

الأمريكية بما أقامته الخبرة الأمريكية لهم قبل الثورة من أنفاق قد تمتد أميالاً تحت الكاريبي ، وبما دعمته به من الإشارات الضوئية الأوتوماتيكية . . أضف إلى هذا ، الهدوء القاتل والملاحظ بالعاصمة حيث تقل أعداد المارة وتندر السيارات الخاصة بأنحائها ، وقد تخلو الطرق أحياناً اللهم من بعض الشاحنات أو الحافلات « الأوتوبيسات العامة » وقد اشتد زحامها وخاصة في ساعات الذروة من النهار حيث يستقل العاملون من وإلى أماكن أعمالهم . . ومن هنا لا يمكن محاكاة هافانا « العاصمة » حتى بأهدأ « الضواحي » في أى بقعة من العالم خلّو المدينة تماماً من محلات ومخازن العرض ، امتلاء الشوارع ومنعطفاتها برجال الأمن وسيارات اللاسلكي ، انعدام الحياة والعلاقات الاجتماعية بجميع صورها ، الافتقار إلى الروابط الأسرية . . إلخ . وقد يقبع الناس في بيوتهم أياماً لا يغادرونها إلا غراراً أو اضطراراً هروباً من وطأة الشمس المحرقة ، أو من غيلات « السيكلونات » أو الأعاصير المدمرة .

لقد كانت الإجراءات الإدارية المعقدة والروتين المرير بما تتميز به الحياة ومظاهر الإدارة الكويتية لمن أكبر وأهم العوائق في حياتنا اليومية هناك ، فقد تقضى قرينتي اليوم بأكمله بالمستشفى لمجرد تطعيمها بالمصل ! ولما كنت حريصاً على الالتزام بواجباتي الوظيفية هناك ورغبتي الملحة في إنجاز أعبائي الموكل بها من المنظمة الدولية فقد كان لا بد من البحث عن حل جذري لهذه المشكلة ، يوفر لي الوقت للعمل من جهة وأخرى ، يضمن سلامة وراحة قرينتي التي أصرت على البقاء وثابرت على تحمل الآلام والشقاء . . ولكم كانت سعادتي عندما لاح هذا الحل في الأفق ، فلقد أرشدني أحد الأصدقاء من أعضاء سفارتنا هناك إلى الطيبة « أوديسا » فهي تتسم بالمهارة وبحبها وتفانيها في خدمة مرضاها حيث

تشبعت بنخصال والدها الحميدة دكتور «أرماندو» (طبيب سابق مشهور) وتعرف تماماً أن مهنة الطب هي مهنة إنسانية بالدرجة الأولى . .

وجاءت أوديلسا في إحدى نوبات راحتها من العمل بالمستشفى الذى تعمل فيه وبعد أن أدت مهمتها الطبية خير قيام وطمأنتني عن صحة قرينتي . . وبضرورة تغيير العلاج بما يؤكد الإسراع من تخفيف الآلام طلبت منها تحديد الأجر . . وعلى الفور انتصبت قائمة من حيث تجلس وتحولت وداعها ورقتها إلى ثورة عارمة راحت خلالها تقذف وتبعثر بكل ما تحمله جيوب ثوبها وحقيبة يدها من « بابل » ، كما راحت تتمم بأصوات تحشرجها أنات البكاء وبما لم أفهم منه سوى رفضها للنقود ورغبتها فيما قد يشبع جوعها . . بل إنها لا تمنع في إعطائي كل ما تمتلكه من نقود في سبيل ما يرد رمقها ، ولما سألتها عما تفضل ، حددت طلباتها في « قطعة » من الدجاج ، علبة أو اثنتين من صلصة الطاطم ، وبصلة واحدة . . . وكان لها بالطبع ما أرادت ، بل ملئ لها « جراب » اشتمل على أصناف شتى مما نحفظ به « بالكرار » من معلبات محفوظة كنا قد استوردناها بالإضافة الى زوج من الدجاج . . وأصدقك القول يا عزيزي القارئ في أنه لم ولن يصادفني إنسان في حياتي وقد امتلأ قلبه فرحاً ووجهه ابتهاً بمثل ما رأيت في قلب ووجه هذه الطيبة ، وخاصة عندما تأكدت من جدية هذا العطاء والذي اعتبرته فريداً لا يُشَقَّ له غبار !

وكادت تروح « أوديلسا » في غيبوبة من فرط السرور وذبول المفاجأة ولكنها سرعان ما احتوت بين ذراعيها الجراب بما حمل وكأنها تخاف فقده أو استرداده ! وما إن اطمأنت إلى حيازته حتى وجدتها تطلب مني وإلحاح أن أوصلها إلى مسكنها بسيارتي الخاصة لا لشيء إلا لتجنب ما قد تتعرض له من



التي دارت بيني وبين « أوديلسا » منذ ساعات إلا أن ذلك قد لا يمنعهم من إرسال تقرير إلى المنظمة الدولية تتضمنه مظاهر هذا الحدث ، ولا أحد بالطبع يدري ما قد ينطوي عليه من مبررات تخلق أو إيداء أسباب لا ترتبط بالواقع أو بالدوافع الحقيقية إلى ما انتهينا إليه . . إن « تريستا » ( ٢٥ سنة ) تلك المرأة الشابة التي تعمل على تدبير شئون مسكننا هي الوحيدة التي لازمت هذا الموقف بل هي التي قامت بتجهيز « الجراب » وتقديمه إلى « أوديلسا » عندما أذنت إليها بذلك ، فهل يمكن لها وتحت أيّ من الظروف أن تبوح لهم بما حدث ؟ . . إنها لإنسانة رقيقة القلب تم خلجات عينها عن مرارة دفينه وحزن عميق ، فهي لا تتحدث إلا غراراً بل تعمل في صمت وبكل ما أوتيت من قوة ، لا تبدى كلاً أو تتدمر تعباً ، طائفة مهذبة ، تثير الشجون والعطف لدى كل من يراها من الأصدقاء والزلاء ، تراها بين الحين والآخر وقد انطلقت بأفكارها إلى العنان وكأنها تمنى أن تقيم معنا الليل كله تسهر على راحة طفلينا . . تمدهما بكل ما تستطيع أن تقدمه الأم الحنون من رعاية لأطفالها وبما قد يعوضها عن الفراغ « الروحي » الذي تعيشه اليوم المرأة الكويتية بين أنقاض الأسرة المتهاوية ، فياضة تواق مشاعرها إلى رؤية أسرة ترابطت أو اصرها وعمّ الحب والوفاء بين أفرادها ، تعيد إليها حقها وإحساسها في الوجود ، وتسترد من خلالها ما سلبت إياها بل افتقدته إلى الأبد من كيان وطبيعة قد خلقت من أجلها وترعرع في ظلها . . ولقد بادلتها حباً بحب ، وعطفاً بعطف ، وإخلاصاً بإخلاص أعم وأشمل . . كما لم نبخل عليها بزداد أو كساء فلها ما تستطيب وعنها ما لا ترتضيه ، ولكم أحست بالطمأنينة وقد ملأت نفسها ، ولكم شعرت بدفع الحياة ينبض في قلبها ويسرى في عروقها ، ولكن هيهات ! . فسرعان ما سيتبدد كل شيء

وسيندر كل ما هو مشرق ، فالغروب قادم لا محالة والعودة إلى الظلام لا مفر منها ، فهل لها أن تصطحبنا إلى حيث نستقر ببلدنا وإلى حيث نحيا بأرض النور ؟ هل لها أن تغادر البلاد معنا لنعيش معاً بأرض الرخاء والحرية ؟ هل لها أن ترافقنا إلى حيث هواء العزة والكرامة ونسمات الحب والوفاء ؟ هل لها أن تترج معنا إلى حيث تفيض الحياة بالنضال من أجل سعادة الفرد والمجموع وإلى حيث تزخر الحياة بالقيم الإنسانية وباحترام المقدسات ؟ إن أيام السعادة لقليلة وساعات الهناء للمعدودة ماضية ، إنها مجرد خواطر ربما كانت تخالجهما ، ولكنه القدر المحتوم . . والمصير الذى لا هواده فيه ولا هروب . .

إن اطمئنانى إلى « ترسيّتا » لعميق ، وثقى فيها لكبيرة ، فكثيراً ما أفصحنا لنا عن المحاولات العديدة والمتكررة التى ينتهجها رجال المخابرات المركزية الكويتية لاستدراكها فى الإفاضة عن أحوالنا وتصرفاتنا ومدى علاقاتنا بالكويتيين وبالأجانب ، وما هى طبائعنا وسلوكنا حتى فى أدق الأمور وتفاصيلها ، ومدى انطباعاتها الشخصية نحونا ، وما إلى آخره من الوسائل البوليسية الدنيئة والأساليب النازية المنتهكة للحرمان . . والتى إن دلت على شئ فلا تدل إلا على حياة ملؤها الترق والحماقات ، بل التلصص واللا أخلاقيات .

وحسبى أن حياتنا هناك كانت جهداً وعرقاً . . إخلاصاً وتفانياً فى العمل . . لم تمسسها شائبة ، ولم يتطرق إليها أدنى شك ، فهذه هى حياتى كما عايتها أينما ومتى وجدت ، وهذا هو أسلوبى كما تعودت حينما عملت . . ولقد عملت هناك مع مجموعتى البحثية الأصلية بالإضافة إلى تطوعى وبالمجان للعمل مع مجموعة أخرى لأحد الزملاء وقد وافته المنية فجأة إثر حادث طائرة وهو فى طريقه إلى كوبا لتسلم عمله فى مجال يدخل ضمن نطاق تخصصاتى العلمية . . وبعد فترة



وجيزة من وجودى هناك ونتيجة للمناقشات العلمية التى كنت أحرص على ممارستها وتنظيمها فى صورة « حلقات دراسية » متابعة كلفت متطوعاً وبالمجان أيضاً للعمل مع مجموعة ثالثة فى مجال انبثقت أهمية دراسته وضرورة تناوله بالبحث كى أقود فى النهاية « فريق بحث متكامل » يعمل فى ثلاثة اتجاهات بحثية متضامنة ، مستهدفاً حل بعض المشكلات الزراعية الخطيرة .

وقد كان هذا بالطبع كفيلاً كى أقوم الجزء الأكبر من الليل ساهراً ، وطوال النهار مقيماً بعملى ، لا اهتمامات لى غير المضى قدماً بتلك البحوث إلى أهدافها ، وبهؤلاء الأفراد إلى الارتقاء العلمى والفكرى واكتسابهم لبعض الخبرات العملية النادرة بما قد يمكنهم من مواولة أعمالهم باطمئنان بالغ ، ومن القيام بدورهم بفاعلية تامة فى الارتقاء بنظام التعليم والأساليب البحثية والتكنولوجية ، بجامعة بل بما قد يؤهلهم إلى المشاركة الفعالة فى حل مشكلات بلادهم الاقتصادية . .

وحتى تتحقق الفائدة المرجوة ، وجدت من الأصوب الالتحاق بأكاديمية « أبراهام لانكون للغات » بهافانا كى أنعلم وأجيد اللغة الإسبانية - لغة البلاد الحالية - حيث لا يتحدث الإنجليزية ممن عملوا معى بتلك المجموعات الثلاث سوى فردين فقط مما يؤدى حتماً إلى صعوبة بل استحالة التفاهم مع البقية الباقية منهم . . ولقد استدعى هذا مواظبتى على التواجد يومياً بتلك الأكاديمية لمدة ساعة حددتها فى الصباح الباكر استقطاعاً من وقت راحتى وقبل الموعد الرسمى والمحدد للعمل بالجامعة . . وخلال فترة ما - زيادة فى الفائدة وللتعجيل من الإلمام بهذه اللغة - رأيت ضرورة امتداد هذه الساعة إلى ساعتين ، وكما كانت دهشتى بالغة عندما واجهنى مدير المشروع بتقرير من إدارة

« العلاقات الخارجية » بالجامعة بتحديد دقيق لهذه الفترة التي لم تكن قد تجاوزت الشهرين عند ذاك ، يستنكر تأخيري هذه الساعة في مواعيد العمل الصباحية ، متجاهلين بذلك كم من الساعات الطوال التي كنت أقضيها وبصفة شبه يومية بعد ساعات العمل الرسمية بما يأخذني بالعمل في الجامعة إلى ساعات متأخرة من الليل ، بل بتضحياتي الكبيرة في العمل في أثناء نهايات الأسبوع وكلها دون أى مقابل مادي . . فكم يضنى النفس حقاً ويشقىها ، وقد اعتادت حياة الحرية المقرونة بأداء الواجب والالتزام به ، أن تجد قيود الغدر وما لبثت تكبلها وتكيل لها من الشرور أعتاها . . فهذه في الواقع هي سمات تلك البلاد ؛ مقابلة الإحسان بالإساءة ومواجهة التضحيات بالغدر ونكران الجميل . . . وإنه لمن أقسى الأمور على النفس البشرية ، بل أعنفها في الوجود أن يستشعر الفرد الحر والعيون له بالمرصاد ، تلاحقه في حركاته وسكناته خاصة ممن لا يعرفون معنى الحرية المسئولة أو يقدرنون مقنناتها أو ممن لا يبالون بالعمل الفنى ومدى احتياجاته إلى صفاء الذهن وارتياح السجية بما يؤدي إلى الخلق والإبداع . . فهل لى أن أنجاهل هذه الحقائق وأتقبل ما حدث بما يحمل من إساءات لشخصية علمية لها قدرها ووزنها على المستوى العالمى ؟

كان من الضروري إذن مواجهة المسئولين ومصارحتهم بكل هذه المشاعر ، وكان لزاماً تنفيذ هذه اللاأخلاقيات وإظهار رفضي المطلق لها بكل إباء واعتزاز ، بل اتخذت قراراً حازماً بترك البلاد فوراً وأنا غير آسف أو متردد إن لم يعدلوا عن هذه التصرفات النائية وهذه الأساليب الشنعاء تجاه فئة من العلماء جاءت خصيصاً من بلادهم لتساهم في رفعة شأن الإنسان وتأكيد حقه في الوجود أينما كان هذا الوجود . .

والحقيقة أنني كنت أحظى باحترام مميز وتقدير خاص ممن يعملون تحت إشرافي بالجامعة ، فلم يألوا جهداً في مساعدتي على تخطي ما قد يعترض حياتي اليومية هناك من بعض الصعاب ، فلكم تذكرت ذلك الصباح عندما جئت إلى معلمي وقد عبس وجهي على غير العادة واستشرى الوجرم في عيني لا لأنني لم أكن قد تناولت قدح الشاي الذي تعودته في الإفطار ، ولا لعلمي مسبقاً باستحالة توفيره خارج المنزل ، وإنما لانقطاع الغاز بمسكني منذ الليلة السابقة ، حيث قد فرغت أسطوانته على غدة ، ومن المستبعد - وكأى أمر في هذا البلد - استعاضتها في التّو بل لا بد من الانتظار ولو لبضعة أيام على أقل تقدير إذا ما قورنت كأحد أعضاء منظمة دولية بالمواطن الكوي العادي والذي يدرج اسمه في مثل هذه الأحوال بقائمة انتظار قد يمتد مداها شهوراً ! ويحذر بي الإشارة هنا إلى أن الرشوة والمحسوبية لها دور كبير وهام في هذا البلد ، فكبار رجال الحزب الشيوعي الكوي وأعضاء الجاليات السوفيتية - بما لهم من نفوذ وسلطة إدارية ، وبما أوتوا من قدرات « عينية » قد يشترك معهم فيها الأجانب بصفة عامة وبما لا يتوافر لدى المواطن الكوي العادي - فلهم الأولوية بل الأحقية في تيسير شئونهم الخاصة ، وتحقيق متطلبات حياتهم اليومية ، ولعل « علة » من السجائر « المستردة » أو زجاجة من « البراندي » أو « الويسكي » تقيم الدنيا وتقعدها ، بل تقلب الأوضاع رأساً على عقب . .

وأما عن الشعور الطيب والذي حظيت به ممن يعملون معي في الجامعة فحسبي أنه يرجع إلى عدة أسباب أهمها محاولة إرضائي ، والعمل بقدر المستطاع على ضمان استقرارى الذهني للاستفادة الكاملة من مهمتي الموفد من أجلها ، بالإضافة إلى معاملتي الشخصية لهم بالحسنى ، وبكل ألوان التعاطف الروحي

والإنساني ، ويتضحياتي البالغة معهم بالوقت والجهد بما طغى - مؤكداً - على راحتي وحياتي الخاصة ، بل على التزاماتي نحو أفراد أسرتي وبالأخص في ظروف بيئية واجتماعية قاسية يحتاجون فيها حتماً إلى أقصى درجات المشاركة الوجدانية وإلى المزيد من الرعاية والاهتمام ، ويكفي تلك الحالة الصحية السيئة التي اعترت قرينتي ومدى تضحياتها الواضحة بالبقاء لإتمام مهمتي ، والتي لا تخدم في النهاية غير مصالحهم وبلادهم . . إذن ، لماذا لم تنتج محاولاتهم هذه المرة في إقناع المسؤولين بتوفير سيارة لتوصيل وإعادة قرينتي من وإلى المستشفى ؟ ولماذا لم تنتج محاولاتهم في إقناع المسؤولين بتوفير الرعاية الصحية لها بمسكنها تغلباً على هذه المشكلة ؟ . . كان واضحاً أن هذه المتطلبات لا تمشي و« مظاهر » الحياة الكونية ، بل تتناقى مع أساليب ونظم المعاملات « الرسمية » بهذا البلد الغريب ! فليس هناك من السيارات ما يخصص يومياً أو بصفة دورية لأداء مثل هذه المهمة « الشخصية » ، وغير مسموح بانتقال الطبيب لمباشرة ورعاية مريض بمسكنه !

ولم تبدد تلك الخواطر من مخيلتي ، ولم تسترح سجليتي إلا في الصباح التالي عندما تقابلت على عجل مع مدير المشروع وقد شاورته في أمر ما حدث باليلة السابقة ، وأمام إصراري وعنادي كان فرضاً عليه تدبير الأمر ومعالجته بما أدى ، والحق يقال ، إلى ارتباك بعض الأمور الأخرى والمتصلة اتصالاً مباشراً بالمشروع ارتباكاً شديداً .

## « البروليتاريا » بين رحي الظلم والحرمان !

ولعلك فطنت . . أيها القارئ العزيز ، من مشكلة مرض قرنتي إلى مدى الأهمية البالغة للسيارة الخاصة في التنقلات اليومية للأجانب هناك ، ولولا هذه الأهمية ما أقدم أحدنا على استيرادها أو جازف باصطحابها وهو يعلم تماماً كم يتحمل من المشاق في صيانتها وكم يصادف من المصاعب الجمة لتوفير قطع غيارها أو استعاضة ما قد يعطب من أجزائها ، فأمر عادي أن تُحتجز سيارتك بإحدى الورش بما يزيد عن الأسبوع لمجرد احتراق أحد الصاهرات أو أي انفصال مفاجئ لأحد الموصلات الكهربائية ! ومن هنا كان لزماً على الغالبية منا اللجوء سراً إلى بعض العمال لتدبير مثل هذه الأمور أو لإجراء أعمال الصيانة الدورية لسياراتهم توفيراً للوقت والجهد .

فهذا « أرماندو » الميكانيكي ، وذلك « جويرمو » الكهربائي وذاك « إرنستو » عامل النظافة قد ينحصر كل منهم من « العينيات » ما لا تزيد قيمتها عن دولار أمريكي واحد لعمل شاق قد يستمر معه يوماً كاملاً . وذات يوم كنت في زيارة خاطفة لأحد الزملاء ، وكان منهمكاً في ملاحظة « أرماندو » الميكانيكي وهو يعمل خفية على إصلاح عطب بسيارة بالجراج الملحق بمسكنه والمجاور لإحدى دور « البيكادوز » .

وبينا كنا نتجاذب بعض أطراف الحديث إذ تفاجأ بأرماندو وقد سألت الدموع على خديه مكدفاً ببصره على مقلب للزبالة على مرأى من البصر خارج الجراج ، وقد همَّ أحد عمال النظافة بالقاء بعض الفضلات به . . وبمواساته على ما عسى قد ألمَّ به من فاجعة . . أشار بيد ترتجف إلى مقلب الزبالة ، وراح

يهذى بصوت حزين تشوبه حشرجة من البكاء المكتوم ، ليفصح عن حالة  
البؤس والشقاء التى يعيشها الآن أفراد الشعب الكوي ، وليقارن مدى البذخ  
والنعيم الذى يحياه كبار أعضاء الحزب الشيوعى الكوي وما يلقى من بقايا  
طعامهم وفضلات « البيكادوز » بصناديق القمامة ، فى حين أن الرعيل الأكبر  
من الشعب يتصور جوعاً وتلظى ناراً بين رضى الظلم والحرمان ، حتى إن  
البعض يعيشون على أسلوب « حيثما سقط لقط » وقد يلجئون إلى هذه  
الفضلات كى يلتقطوا منها حبات الأرز ويقتاتوا شغات اللحم ونفاياته !  
وقد كانت الفرصة مواتية كى نتقل بالحديث معه وباستفاضة عن التغيير  
الاجتماعى الذى طرأ على المجتمع نتيجة لاتباع النظام الشيوعى بالدولة ، ومدى  
انعكاسه على طبقة « البروليتاريا » بصفة خاصة ، وهنا راح يتنفذ بعصبية  
بالغة ليزق وليأتى على ما تبقى من ملابسه الرثة والمهلهلة ، متخذاً من نفسه  
نموذجاً حياً لأحد أفراد هذه الطبقة الكادحة من العمال وما ألم بها فى غضون  
هذا التغيير الاجتماعى من عرى وجوع وإذلال ، مقارناً ذلك بحياته السابقة التى  
كان يعمل من خلالها عاملاً بسيطاً بإحدى محطات « خدمة السيارات » ،  
ليدخل جيئه يومياً ما لا يقل عن ٢٠ يزو كوي أو ما يوازيه من العملات  
الأجنبية فى صورة راشن « بقشيش » خلاف أجره ، ليرتدى أرقى الملابس ،  
وليستمتع بكل ما تشتهيه نفسه من أطيب الغذاء . . بلاد مفتوحة ، وسلع  
متوافرة ومستوى معيشى منخفض . . الكل يعمل وعلى قدر العطاء يأخذ ،  
لا حرمان ولا استبداد ، لا قيود ولا إرهاب . . لا تلصص فى العمل  
ولا تعريض لحياته إلى أخطر الأخطار . . لا اصطيد لأجنى أو ملاحقته كى  
يحصل منه على ما قد يشبع بعض جوعه أو يحمى جسده من لحة الشمس

أو ما قد يستربه عورته ! إن ما يتبعونه مع الأجانب ما هو في الحقيقة إلا تسوّل «مقنع» مستتر، يشحنون من خلاله بعض ما تتوق أنفسهم إليه وما لا يتحصلون عليه بالكّد والعرق لخدمة من لا يستحقون من ماسكى السياط والجلادين ! وكان «أرماندو» مصداقاً في كل كلمة نفوه بها ، وبكل سريرة عبرت عنها أسارير وجهه المكفهر ، وبكل نبرة انبعثت من صوته الحزين . . . فلقد أصبح مألوفاً لدى المرء أن يرى امرأة وقد ارتدت فستاناً أو ثياباً جهزته من «خيش» الأجلة ، لا لشيء إلا لأنها تتسلم فستاناً «أوحد» كل ثلاث سنوات ، وإذا فطنت أيها القارئ العزيز إلى رداء الصناعة الكويتية بصفة عامة من جهة ، وأخرى إلى نظافة الفرد الكويتي بحق ، وولعه باغتسال ملابسه وبالإستحمام اليومي لأكثر من مرة ربما يحكم انتمائه إلى جزيرة ترتفع درجة حرارتها على مدار السنة ، لأدركت فوراً السبب الحقيقي لهذه الظاهرة الغريبة ، والتي أصبحت لشيوعها وانتشارها غير لافتة للأنظار اللهم فيما عد الغبراء بالطبع .

والمسألة لم تقف عند حد المأكل والملبس ، بل امتدت لتشمل كثيراً من مظاهر الحياة واحتياجاتها ، فقص الشعر وترتيبه مثلاً أصبح موقوتاً ومحدوداً بمرّة واحدة في الشهر ، سواء كان للذكر أو الأنثى ، وإذا كان الذكور بطبيعتهم لا يهتمون كثيراً بهذا الأمر فهو يعنى الكثير بالنسبة للمرأة والتي تميل بطبيعتها إلى التزين وحب التغيير في ملامحها وسمات مكوناتها الشكلية والجسدية . . ومن هنا يجد المرء تفسيراً صارخاً . لانهاك من يعملن معى من النساء في أعمال الزينة والتجميل ، واستقطاع فترات طويلة من وقت عملهن كل صباح يتبادلن خلالها تصفيف وتسريح شعورهن ، ولم أكن مغالياً إذا ما قررت ما لديهن من مهارة

فائقة قد يفتقر إليها الحرفيون من مصنفى الشعر برغم انعدام المستلزمات والأدوات ، ولكن يبدو أن الحاجة هي فعلاً أم الاختراع ، على حد قولهم ، فلا تعجب إذن أيها القارئ العزيز إذا علمت أنهم يستعملون تلك الأسطوانات المقواة ، والتي تنتهى إليها لفافات ورق التواليت من الداخل كبديل لما تستخدمه نساء العالم أجمع من « لاففات » أو « رولات » الشعر المصنوعة من مادة « البولى إيثيلين » الملونة . .

وإذا كنا قد تنفق على أن رولات الشعر من « الكماليات » فمن المستحيل اعتبار الغذاء والمياه الغازية والكساء والمسكن و « الحرية » من كماليات البشر ، فهي ضروريات لنمو الإنسان وحمايته وإمداده بالطاقات اللازمة لقيامه بدوره الفعال فى بناء وتطور المجتمعات البشرية . . فكيف يتم للمجتمع الكوئى البناء والتقدم والفرد وهو مُطوّر الحياة يقاسى الجوع والمرض بما تصدع له الجبال والصخور . ويقاسى التفكك والانهار الاجتماعى بما تحطم عليه لبنات ما قد يعتليه من بنيان ، ويقاسى القيود والاستبداد بما يعرقل انطلاقاته بل يحجره إلى الدرك الأسفل من التخلف والدمار .



## الترف والبذخ حكر على كبار الحزب الشيوعي

ولقد أصدقنا «أرماندو» القول عندما صرّح لنا عن بعض مظاهر الترف وحياة البذخ التي يعيشها كبار رجالات الحزب الشيوعي الكوبي بامتصاص عرق ودماء الطبقات الكادحة ، والتطفل بلا رحمة وبلا هوادة على أجساد «البرجوازية» و«البروليتاريا» الكوبية ، وبما كشف عنه النقاب من اغتصاب ظالم أرعن لممتلكات «السينيور سوارز» وأمثاله من الطبقة الأرستقراطية والتي كان في مضمونها ومفهومها الأساسي هو الاستفادة منها في تقوية صرح البناء الاجتماعي وكفالة العدالة الاجتماعية وإرساء دعائم الحرية والانتعاش الاقتصادي للبلاد .

وإذا كنا نتفق تماماً على أن «الإقطاع» و«الرأسمالية المستغلة» من أبرز العوامل والمعوقات التي تؤدي دائماً إلى الاحتكار الاقتصادي وإلى تقويض صرح البناء الاجتماعي وإلى استغلال الطبقات الكادحة فإن مجرد انتقالها إلى شذمة أو فئة أخرى ، وخاصة في ظل نظام «أوتوقراطي» أو فاشيستي تحكمه

« التوتاليتاريا » أى تحت إرادة حزب واحد ، فلا يعنى سوى استمرار هذا التقويض وهذا الاستغلال ، بل يقود فى النهاية إلى الظلم والاستعباد الذى يعم الغالبية العظمى من أفراد الشعب . .

فما بالك إذن أيها القارئ العزيز إذا ما وقعت هذه « التوتاليتاريا » تحت سيطرة ونفوذ قادة الكرملين . . فهذا هو أقصى المراد حيث يتخذون من الشيوعية أسلوباً لتركيز الحكم والسلطة بيد فئة قليلة متجانسة من أفراد الشعب يمكن عن طريقها الهيمنة على الأمور وتسييرهم طبقاً لخططاتهم فى نشر « العقيدة » هادفين فى النهاية إلى استتراف خيرات هذه الشعوب واتساع رقعة سيطرتهم . . وطالما امتلأت بطون هذه الحفنة القليلة بما لا يمثل عبثاً كبيراً على السوفيت ، فهناك تأكيد واستمرار بل تعميق لنفوذهم وسيطرتهم على البلاد . . من هنا جاء حرمان الغالبية العظمى من أفراد الشعب الكوى من خيرات بلادهم ، فهى للسوفيت فى المقام الأول . . ومن هنا جاء تقييد الحريات والتكبير بالحديد والنار ، والعيش تحت وطأة الإرهاب والأحكام العرفية ، واقتصاد القيم والروحانيات ، وتحطيم الروابط الأسرية والاجتماعية ، واتباع سبل الأمن السياسى الرادعة والشكيمة بما يحكمها من أساليب « الجستابو » النازية وأعمال التجسس ، كلها حفاظاً على عملائهم من فئة « التوتاليتاريا » الكويية . وقد لمست بنفسى بعضاً من حياة الترف بل المجون التى يعيشها كبار أعضاء الحزب الشيوعى الكوى . . فما هو ذا « الرفيق إرنستو » يسكن بالطابق العلوى من مسكننا بحى ميرامار ، وهو من كبار أعضاء الحزب ويعمل مديراً لأحد مصانع « الروم » بهافانا . . وكثيراً ما كان يقيم السهرات ليؤمها بعض النساء ، فترتفع الضحكات ويعلو المرح والمرج بما كان يقلقنا كثيراً ، أما الموسيقى فلم يكن

لها نصيب يذكر في مثل هذه الأمسيات ، ولعله كان يحرص على عدم انبعاث أصواتها كي لا يلفت إليه الأنظار ، كما كان لا يعنيه اصطحاب زائراته إلى خارج باب القصر ، وكنت أراه في أيام الآحاد وهو يعمل ملاحظاً يرتدى « الأوفارولز » ليلقى بالتعليمات والأوامر إلى فتيات وسيدات الحلى من الكوبيات ، للقيام بأعمال النظافة ، وغسل الشوارع المحيطة بالقصر ، والتي يمارسها إجباراً عليهن . . أما فيما عدا ذلك فلا أراه إلا مرتدياً زيه العادى في أبهى صوره ، يتنقل بسيارة « موسكوفيتش » جديدة لها قائدتها ورسوله الخاص . .

وبحكم عودتى من عملى متأخراً في أغلب الليالى ، ومع سكون الليل الرهيب فقد كان يصادفنى مراراً وقوف إحدى السيارات من النوع « نصف النقل » على « بورش » القصر ، وقد غطيت جوانبها بالحصى أو قماش الجفانص لتخفى عن الأنظار ما تحمله مما لذ وطاب من صناديق النيذ « الأسبانى » ، والسجائر « الروثمان » الإنجليزية ، والسيجار « الهافانا » المخصص للتصدير ، الدجاج ، والبيض واللحم ، وجميع أصناف الفاكهة الطازجة ، وأغنى منتجات البحر الكاريبى من « اللونجوستا » أى « سرطان البحر » ، والجمبرى ، بالإضافة إلى ما تجود صناعته بكوبا من صناعات غذائية معدودة مثل الآيس كريم ، وعصير المانجو والأناناس والجريب فروت وغيره من الموالح . .

وإمعاناً فى توصيل هذه « الإمدادات » الخاصة فى الحقاء فقد اتخذت كافة الاحتياطات لضمان توزيعها على « المختارين » مرة واحدة أسبوعياً مع تباين أيام الأسبوع بين المرة والأخرى .

## فيدل كاسترو :

والحديث عن الترف والمجون يجرنا بالطبع إلى شخص فيدل كاسترو ذاته بوصفه رئيساً للحزب الشيوعي الحاكم . . وسأترك هنا للقارئ استنتاج ما قد يخلد إلى فكره وتصوّره من شتى ألوان الترف والملذات التي يحظى بها القائد في كل حركة وفي كل همسة وفي كل سكتة من سكتاته !

وإن كانت حياة كاسترو الشخصية وكيف يعيش دقائقها وكيف يؤمنها لم يهني الكشف أو الاستقصاء عنها من بعيد أو قريب ، فإن حياتي وروحي لأغلى بالقطع من أن تزهق ضحية لجونه ، بل حتى لحياته ذاتها ، لا لأن حياته لا تهني بل لأن حياتي أنا قدتهم الكثيرين ، هم وطني وهم عشيرتي ، هم أبنائي وهم تلاميذي ، هم زملائي في العلم وفي تطويعه لخدمة الإنسانية والارتقاء بالجماعات البشرية .

لقد رأيت الموت وجهاً لوجه وقد كنت على قاب قوسين أو أدنى من الهلاك لا لشيء إلا لجرد الدخول بمحض الخطأ إلى إحدى المناطق المحرمة ! فلدات أمسية وقد اشتد قيظها ، خرجت بصحبة قرينتي وأحد الزملاء وقرينته في جولة بسيارتي الخاصة فنجوب بعض شوارع هافانا المؤدية إلى الكاريبي ، وإذ بالحديث يأخذنا لأجد نفسي وقد توقفت عن القيادة اضطرارياً فلقد ارتطمت مقدمة السيارة بصفد حديدى امتدّ بعرض الطريق ، فتحطم أحد الكشافين الأماميين ، وسرعان ما عوّضنا عنه بكشافين مضادين خطفت أبصارنا ، ولم نر سوى « سونكين » موجهين إلى صدرى وزميلي الذي كان يجلس إلى يميني . . وهنا علا صراخ القرينتين في حين تملكني وزميلي فزع وارتباك لم نعهدهما في

حياتنا من قبل فلقد أدركنا أننا قد اقتحمنا منطقة محرمة ، ويا ويلنا لارتكاب هذا الجرم ! فالمرتزقة المصيرنا ، والمجادلة في مثل هذه الظروف لا تجدى ولا تفيد . . لقد تعثرت ألسنتنا ، بل تعمدنا الحديث بأى لغة غير الأسبانية إيهاماً بمجاعة قدومنا إلى البلاد وجهلنا التام بنظمها . ولقد أبدى أحد الحارسين بعض اللين عندما طلب جوازات السفر من زميلي في حين أمسك الآخر بمقبض الباب الذى يحاورنى - والشرر يكاد يتطاير من عينيه - ، محاولاً فتحه بعنف ، وبسرعة خاطفة كنت قد أوصدت من الداخل دونه الأبواب وأغلقت زجاج النوافذ المواجهة له . ولم ألبث أن اندفعت بالسيارة إلى الورا لألوذ بالفرار ، وما هى إلا ثوان حتى اختفينا عن الأنظار . . وكان بديهاً ألا نفكر بعد ذلك في مثل هذه الجولة المشثومة ، فلربما يسبق السيف العزل ! وما أكثر تلك المناطق المحرمة انتشاراً في هذا البلد .

وقد يهون الملع الذى راعنا ، ويضمحل الرعب الذى عشناه هذه الدقائق العصبية أمام ارتعاد أوصالنا استياءً ، وأمام المرارة اللاذعة وهى تسرى في حلوقنا ، والمهانة الشائنة التى هيمنت على نفوسنا عندما علمنا فيما بعد أن موتنا كان محققاً في تلك الليلة . . فكيف أتى لنا من الجرأة والجسارة أن نقحم أنفسنا على منطقة تضم استراحة للقائد يقضى بها لياليه الحمراء بين الخمر والنساء وقد نفسد بذلك خلوته ؟ .

أحياة الفرد في هذه البلاد قد رخصت لتصبح رهناً للمذات السلطة ؟ .  
أحياة الإنسان قد دنت لتصبح مقابلاً لشهوانيات القيادة أو لجرد الاقتراب من خلواتها ؟

هذه هى الشيوعية عندما تتصادق مع الشعوب . . تأخذ منها ولا تعطى ،

تشر بها الدمار ولا تبني .. تدعم القهر والاستسلام ولا تؤمن .. تثير الفتن والأحقاد ولا توفيق .. تزيد الفرقة ولا تقرب .. تكبل الحريات ولا تحرر .. تلغي القيم ولا تهذب .. تشيع الفساد ولا تصلح .. هكذا قال لي - وللغربة - أحد الأصدقاء من كبار الحزب الشيوعي الحاكم ، وكان حديثاً وجدلاً طويلاً بعد اطمئنان بالغ ، وبعد عدة لقاءات كانت تتم مصادفة فيما بين أسرتنا بنادي « بارلوفيتو » على شاطئ الكاريبي ، أحد النوادي المخصصة للأجانب وكبار رجال الحزب الشيوعي ، حيث تقضي الأسرة معظم نهايات الأسبوع هناك بين حمام سباحته وبين الترحلق على مياه الكاريبي .. وقد كانت بدايتها تعارفاً بإحدى « حفلات الاستقبال الدبلوماسية » والتي كانت تدعونا إليها سفارتنا بهافانا بين الحين والآخر .

وكنت قد أثرت مع « الرفيق ميغيل » - بادئ ذي بدء - ما حدث لنا في تلك الليلة المشثومة وكم أحسنا بامتهان كرامتنا ورخص أرواحنا برغم مجيئنا وتضحياتنا الكبيرة لخدمة بلادهم ، وكتعليق منه شخصياً على حالة المجون والفساد الخلق السائدة بين غالبية أعضاء الحزب الشيوعي الكوبي علمت بالتحديد أن لفيدل كاسترو وحده من الاستراحات والخلوات الخاصة ما يزيد عن عدد أيام السنة في أجمل بقاع هافانا ، بل الجزيرة كلها ..

وعندما تطرق الحديث إلى حياة الترف والبذخ التي يحياها كبار رجالات الحزب الشيوعي الكوبي وهو بالطبع أحدهم - بما يفهمهم بلا وعي إلى الرضا ، ويشجعهم بلا تفكير على الولاء والتمسك بالنظام الشيوعي بالبلاد ، عبر بصراحة وإيمان صادق عن مدى استيائه الشديد ومقته الدفين له ، بل تعطش الجميع - بما فيهم فيدل كاسترو ذاته - إلى التخلص من برائن السوفيت وقادتهم ، ولو أنه

الآن بالأمر شبه المستحيل ! . فلقد كانت تجربة قاسية فرضتها عدة ظروف سياسية واجتماعية انتهت بما هم عليه الآن ، فلم يكن الإنسان يوماً ما آلة أو ترساً في آلة يتحرك كيفما شاء له مصمم أو صانع هذه الآلة ، وإنما هو كائن حي ، كائن ملئ بالأحاسيس والعواطف ، كائن اجتماعي يعيش في مجتمع بشري يتفاعل معه بالفكر الحر وقدراته وطاقاته المتباينة والمتغيرة . . يعطى ليأخذ ، يفكر ليرتقى ، يتنافس ليتطور ، فليس الإنسان مجرد حيوان يأكل ويرتوى ليعيش ويتكاثر للحفاظ على جنسه ، وليس الإنسان كائناً دنيئاً ليتطفل ويحلب الدمار والحطام لعائلته ، انظر مثلاً إلى النمل والنحل « كحشرات اجتماعية » ، فكل فرد له دوره الفعال كى تسير الحياة وتتبعش بالخلية ، الكل يتعاون في سبيل مصلحة الجماعة ، فلها الحرية في التحرك والكشف عن البيئة الصالحة للمقام والعيش ، لها الحرية في الانتقال للبحث عن الغذاء ، لها الحرية في التصرف لتخطي ما قد يصادفها أو يقاها من صعاب أو مخاطر ، إنها لو تقيدت كالألة بأسلوب معين أو سلوك ثابت ، فسرعان ما تهلك وتندثر . .

ويقرر « ميغيل » أنه لا سعادة إذن في هذا الترف وهذا المجون الذى يعيشونه كأعضاء كبار بالحزب الشيوعى الكوبى ، وقد افتقدوا كل ما يتصف به الإنسان وما يتميز به كيانه الحيوى عن أى من المخلوقات الأخرى ، من فكر خلّاق مبدع ، ومن عواطف وروابط اجتماعية . . فهم بالوضع الحال لا يتميزون بشيء عن الآلة الصماء التى تتحرك بالوقود ( الغذاء ) وتلين أجزاؤها بالزيت والشحوم ( الكساء ) ، لا عقل يدبرها ولا فكر يرشد . . إنهم لا يفضلون العيش في هذا البذخ بقدر ما يريدون العيش وقد ربطتهم أواصر الحب والاحترام . . إنهم لا يغيغون حياة المجون والاستهتار بقدر ما يرغبون في

العيش وقد ربطتهم أواصر الأسرة بالإخلاص والتضحيات . . إنهم لا يريدون حياة التطفل والاستتراف بقدر ما يأملون حياة التعاون الاجتماعي وتبادل المنفعة . إنهم لا يستطيعون حياة الغدر والقمع بقدر ما يتوقون إلى تنفس هواء الحرية والاطمئنان . . فحتى حياتهم غير آمنة عليها بهذا البلد ، فقد يوشى بهم الواشون ، وقد يفترى المفترون . . فلا رحمة لمن لا يرحم ، ولا شفقة ، لأنهم لم يعرفوا الشفقة ، ولا ترو ، لأنهم قد تعودوا الظلم ، ولا نقاش ، لأنهم عهّدوا التسلط . . وقد يكون أحدهم مجرد كبش فداء ، أو غاية وهدفاً للتحذير والإرهاب !

وإنني لمتفق تماماً مع « الرفيق ميغيل » في أن فيدل كاسترو ذاته قد وقع فريسة سائغة « لأخطبوط الشيوعية » الكاسر ، فلا يزال كتابه « سيفغر لي التاريخ - ١٩٦٩ » يحمل بين سطوره العديد من « الروحانيات » والإيمان بالكثير من « اللا ماديات » والتأكيد على وجود الخالق عز وجل عندما يقول - مثلاً - في وصف حالة البؤس في عهد « باتستا » والتي كان أطفال الريف يعانون فيها من « الطفيليات التي استشرت في أجسادهم الواهنة ، نتيجة الحفا والعري : « إن عيونهم البريئة - وقد لاحت فيها مظاهر الموت - شردت إلى الله » تنوسله الغفران لأنانية البشر ، وكى يمسك من مقتنه وغضبه » [صفحة ٣٨] ، ومرة أخرى عندما يستشهد ببعض المقتطفات من إعلان استقلال مجلس النواب ( الكونجرس ) الأمريكي بفيلا دلفيا في ٤ يوليو ١٧٧٦ على ضرورة الحفاظ على حقوق الإنسان والضرب على أيدي كل من يعتدى عليها ، بأن أورد في كتابه : « إن الناس خلّقوا جميعاً سواسية ، ولهم حقوق متجانسة وهما لهم « الخالق » ، على قنّها الحق في الحياة ، وفي الحرية ، وفي ملائمة



السعادة » [صفحة ٨٢] . . كما أكثر في كتابه من التزم بـ « الروح » [صفحة ٤٤ ، ٥٠] بل شبه التعليم « بكائن حيّ ، وأن المدرّس هو « روح التعليم » [صفحة ٤١] ، كما تغنى بالضمير والوازع [صفحات ٨ ، ٩ ، ٤٥] بل تشدّق « بالذهب المثاليّ » وكأنه يؤمن « بالمثالية » [صفحة ٤٤] على حين يناهض « المذهب الواقعيّ » وكأنه لا يؤمن « بالمادية » حين وقف أمام هيئة المخلفين بالمحكمة بعد فشله في الهجوم على « المونكادا » ليتنكر لظلم العدالة وعدم استقلال السلطة القضائية عن الحكم ، فقد شبهها « بأنها ترس في عجلة نظام الحكم يتحرك كيفما تسير مركبتها ، ومع كلّ فهذا لا يبرّر أى تصرف فردى على خلاف مبادئه » [صفحة ٦٣] . .



## الشيوعية امتّان لكرامة الإنسان والقيم الاجتماعية

وإذا كانت الشيوعية تحرم « البغاء » باعتباره تجاراً بالعرض بما قد يدع مجالا للتكسب الخاص ، فهي في الواقع تلجأ إليه خلسة نظرا لافتقار الروحانيات من جهة ، ولانتشار الحرمان والعوز بين غالبية أفراد الشعب من الفئات الكادحة ، ولوجود طبقة « التوتاليتاريا » بما تتميز به من ترف وما تتمتع به من فيض « العينات » التي يسيل لها لعاب الجائع أو العريان من جهة أخرى . . وأصدقك القول يا عزيزي القارئ أن مجرد سيجارة فريدة « مستوردة » أو قطعة واحدة من علك « الشيكليت » كفيلة بإغواء أى امرأة . . وكأى حرقه أو مهنة هناك ، فالبغاء يدار لحساب الدولة ! ولكنه بالطبع لا يأخذ الصيغة الرسمية ، فتجده في الفنادق ، حيث يتزل بعض الأجانب ، ويصبح جذاباً للعملاء الحرة ، ولترويج بعض المشروبات الروحية المحلية ، وعلى الأخص « الروم » . .

وقد حدث أن قدم أحد الزملاء إلى هافاتا تاركا أسرته ببلده ، عازما على قضاء طوال مدة إقامته بالبلاد منفردا ، لأسباب يتعذر معها اصطحاب أفراد

أسرته ، وكان نزيلا بفندق « ناسيونال » العتيق (شكل رقم ٦) المقام على ريو  
عالية تطل على كورنيش الكاريبي والمعروف بطريق « المالكون » ، وكأى  
غريب يزور هذا البلد لأول مرة ، فإنه قد يصعب عليه للوهلة الأولى تدارك  
الأمر والإلمام بتنظيم الحياة فيه بما قد يمتد به فترات غير قصيرة . . ولهذا فقد  
دأب خلال الشهور الأولى لقدمه على العمل أو البقاء بالجامعة لساعات  
متأخرة ، كانت تأخذه إلى أقصى موعد يتنى معه طلب عشائه بالفندق . .  
وبالعودة إلى غرفته - وقد أضناه التعب ، وكى يخلد إلى النوم - يفاجأ برتبة  
خفيفة على الباب يعقبها دخول إحدى وصيفات الفندق على هيئة شبه عارية  
متدرة ببعض المبررات لإخفاء السبب الحقيقي لمجيئها ، كالتدرع مثلا بتغيير

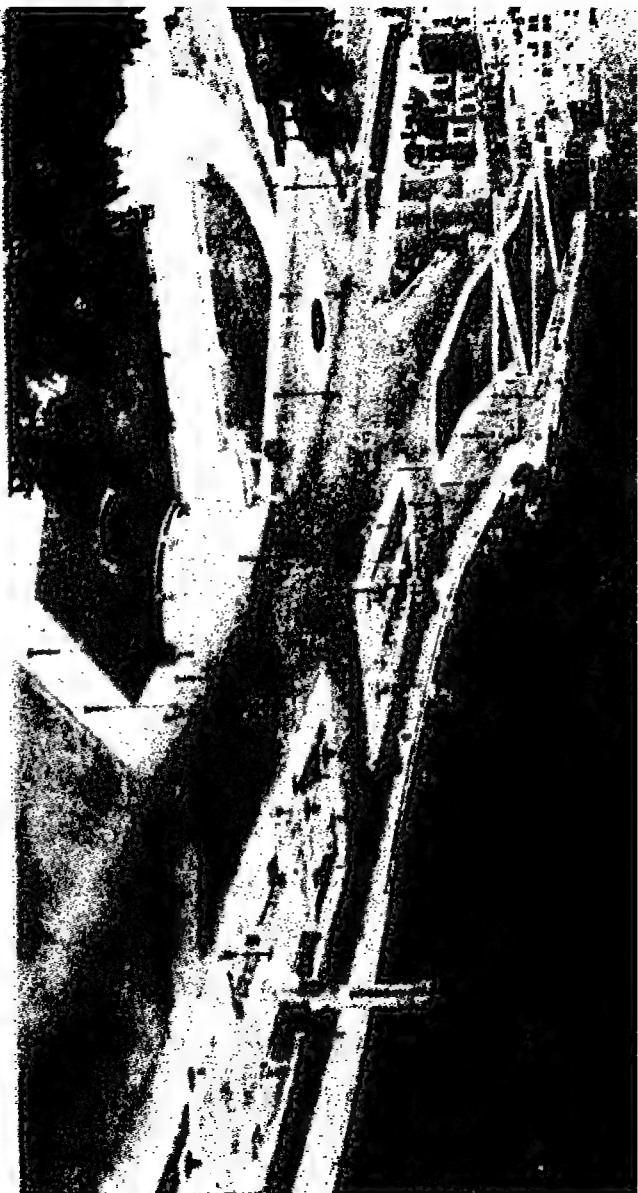


(شكل ٦) - فندق « ناسيونال » أفخم وأرق الفنادق الكوبية بهافانا ، أصبح البقاء فيه هو الخدمة الوحيدة كما في غيره من الفنادق !

أغطية الفراش ، أو بتسقيق الغرفة ، أو بإحضار مياه للشرب . . إلخ . وقد ساعد على هذا « الاقتحام » افتقار الأبواب بصفة عامة إلى مفاتيحها وانعدام أى نوع من المزالق . . وقد يتكرر هذا السلوك الشاذ كل ليلة مع اختلاف الوصيفة بين المرة والأخرى برغم تعففه وإصراره على طردهن خشية وهنٍ أضعف ، ولو أن ذلك لم يعفه من إسدائهن بعض « العينيّات » مما قد يحتفظ به من الحلوى والفاكهة هروياً من الموقف ، وتوفيراً لما قد يطول به الوقت من جدل . . ولقد أمست هذه « الكفارة » - على حد تعبير زميلي - امراً يومياً وحتمياً لاملأذه منه ، بل أصبحت ضريبة وطيدة يعمل على أدائها ويتدبرها دون أى مراوغة ! . . ولا أعتقد أن ترفع واستنكاف زميلي كان لضجر أو امتعاض ، أو لأنه بلغى المزاج مثبداً الحس ، وإنما كان عن فضيلة راسخة ، بل احترام بالغ لقدسية الإنسان وكيانه ، فلقد أبى امتنان أنوثتهن وقد رضين التدنيس للحاجة ، وأنف قنوطهن ، وقد قبلن الرذيلة بالإملاق . . إن الغالبية العظمى من النساء الكويتيات بلون أجسادهن الحمرة وشعورهن السوداء المتهدلة ، وبما قد ميزهن الله به من سحر وجاذبية « ترحيبيات » حواء أصبحن لا يملكن حتى من حق أنفسهن شيئاً . . لقد أصبح جبال الكويت الأخاذ سراباً ، وأمسى جسدها الخلاب شبحاً . تحولت وكأنها الرعب الشمطاء تعيش في طوايا النسيان ، تقاسى العدمية والاختناق . . وقد تعود زميلي الاستيقاظ مبكراً ليتجه إلى الشرفة المظلة على طريق المالىكون - كورنيش هافانا على الكاريبي - ليستنشق نسمة الصباح قبل أن تغلو الشمس إلى أعنتها ، فترسل أشعتها المحرقة كل قبض وغب سعي . . ولم يكذب ينسى مأساة الليلة الماضية حتى يقع في مأساة أخرى أفظع وأعمق . . أزواج من البشر راحت تفترش

سياج الكورنيش بأحجاره العريضة المترامية ، وكأنها سرائر ممتدة لاحتاجة بهم إلى غطاء ولا مدعاة إلى كساء . . لحياء ولا خجل بل كل وقاحة وجل شارب ، سلوك قاضح وخسيس يحط من قدر الإنسان ، ويدنيه من أدنا المخلوقات عيشا ، تجرد من اللياقة وتدعيم للفسق والفجور ( انظر شكل رقم ٧ ) . . ما الذى يجرى بهذه الناحية من العالم ؟ ما الذى حدا بالإنسان إلى هذا الحال وهو سيد العالم وأرق المخلوقات جميعا ؟ والحقيقة أن زميل لم يصمد طويلا إزاء هذا الموضع ، فسرعان ما أرسل مخيرا قريته بين مجىء الأسرة بكامل أفرادها إليه أو عودته إليها . . وكم تحملت الأسرة من مشاق ، وكم عانت من اضطراب بالمجىء والعيش بها قانا . . أتعلم لماذا أبها القارىء العزيز ؟ لأن لهذا الزميل ابنا يحتاج مرحلة المراهقة ، وعلى حد تعبيره ، كان أهون على نفسه التحكم فى مشاعره وأحاسيسه عن أن يعيل صبورا ويضيق ذرعا ، بالحفاظ على ابنة ورعايته ، ولتحمّل من المشاق والإرهاق فى سبيل ذلك ما قد تنوء به الجبال . ولم يكن زميل منصفاً فى حكمه على هؤلاء الذين قد رآهم وهم يفتشون سياج الكاريبي ليتعاشروا ، ولو علم السبب لبطل العجب ، ولتلمس لهم العذر كل العذر فلم تكن هذه الأزواج من البشر سوى أفراد زيجات شرعية لا تمثل البغاء من بعيد أو قريب ، لأنه من المنوعات بحكم القانون ، ولا يمكن مزاولته بالعلن ، وهو أمر طبيعى . . إذن ما هى الظروف الحقة التى تدفع بهذه الزيجات لمباشرة المعاشرة الزوجية والجنس فى العراء ، وبهذه الصورة الفاضحة واللاإنسانية ؟ .

إذا عدنا بالذاكرة إلى « منحة السعادة » أيها القارىء العزيز ( انظر صفحة ٣٣ ) فإن المرء قد يتساءل لتوه عن مصير وكيفية حياة هذه الزيجات خلال



(شكل ٧) - كوريش و المايكون « ذو الشهرة العالمية بطل جانتانا على الكارتي برونقه واتساعه وعا يحده من  
البيان الفخمة والقنادق العالمية والترهات العامة ذات الطبيعة الخلابة ، أصبحت الآن أسواره مضجعا للريدى  
و منحة السادة » !

فترات ما بين الأيام الثلاثة الممنوحة من الدولة (كشهر عسل) والتي قد تتكرر بتكرار الزواج لكلٍّ أو أحد طرفي العقد . .

ومن البديهي أن تجد الدولة المسوغ والتبرير الكافي ، بل الحق كل الحق في عدم توفير مسكن لمثل هذه الزوجات غير المستقرة ، والتي لا تتعدى حياتها فترة زمنية محدودة الأجل ، قد لا تزيد عن بضعة أشهر في أغلب الحالات ، كما أن النظام الشيوعي يحرم من إقامة أية زوجتين في مسكن واحد ، حتى لو كان هذا المسكن يتعلق بالدي أحد طرفي الزيجة الأخرى . . ومن هنا لا يجدان مفراً من الالتقاء والمعايشة الزوجية على قارعة الطرق . و « المالكون » من أنسب الأماكن ، بل المفضلة لدى الكثيرين ، لأنه يطل على الكاريبي بما يؤتيهم به من النسيمات وطلق الهواء ، وخاصة في الساعات المبكرة من الصباح ، وبما لا يبعدهم كثيراً عن مقار أعمالهم بالعاصمة تلاشياً أو تخفيفاً من حدة المواصلات ، والمعاناة البالغة التي دائماً ما تصادفهم في التحرك والانتقال من مكان إلى آخر .

ولعل زميلي قد بطل عجة حقاً عندما علم بكنه الموضوع من أحد المشتغلين تحت إشرافه العلمي بالجامعة ، حيث قد طلب منه توصيله بسيارته الخاصة إلى أحد الأماكن القريبة من مسكنه بصحبة إحدى زميلاته - وكان قد تزوج منها حديثاً - ولما هم زميلي يفتح باب السيارة الأمامي لاستقبال الزوجة فوجيء بها وقد اتجهت إلى المقعد الخلفي لتشارك زوجها الجلوس فيه ، وعندئذ لم يجد زميلي بدا من التفاضى عن هذا التصرف ظناً بجهلها لأصول المجاملات ( الإتيكيت ) وما يجب اتباعه من آداب السلوك العام والتقاليد المرعية . .

وكم ارتجفت أعصابه غضباً بل كاد يفقد صوابه عند أحد المنعطفات



عندما نظر فجأة إلى المرأة العاكسة ليشاهدتها وقد راحا في غيبوبة من النشوة يتطارحان الغرام ويتداعبان عبثا وخلاعة ، وكأنهما في عرش الحب بما يشذ عن المألوف . . وهنا توقف ليطلب منها - والشرر يتطاير من عينيه - مغادرة السيارة مؤنبا وموبخا ، مستنكرا هذا الفعل الشائن وهذا السلوك البهيمن ، فليست سيارته بأرض موحلة كي يتمرغا فيها بالرديلة ، ولا هي ( بماخور ) يستبيحانه لما هو فاضح . . ولم يجدا بدا أمام ثورته العارمة غير تنفيذ رغبته ، فقد بدا مستحيلا مصارحته لتوه بالمبررات والدوافع إلى هذا السلوك . .

وفي صباح اليوم التالي أتاه الشاب جاثما مستعظفا يستمحيه عذرا لما حدث بالأمس ، وقد علم منه كيف أنه يعيش في بيت الطلبة وقرينته بعيدا عنه في بيت الطالبات ، ولا تجمع بينهما سوى المصادفة أو إيجاد هذه المصادفة إذا ما استطاعا إلى هذا سبيلا . . وهنا راحا في مجادلة عرف زميلي على إثرها الموضوع برمته ، فرثا لحال شبابهم وحياة الضياع التي يعيشونها ، والفجاجة والمهانة التي يجيئونها . . وقد يأخذك الدهول ، عزيزي القارئ ، بل ينفرج فاهك تعجبا إذا علمت أن الدولة - مساهمة منها في حل هذه المشكلة - قد أقامت لهذه الزيجات البائسة - وفي بعض الجهات النائية عن العمران - ما يعرف هناك بـ « السينا ديروز » أو « الكوفاتشويلاز » وهي عبارة عن شاليهات أو مغارات صناعية تقدم بالجمان ، حيث يختلئ فيها الرواد في سعادة وهمية وكأنها « جنة العييط » ، وأحيانا توزع عليهم فيها كئوس « الجمعة » وكأنها ينبوع الخلود وإكسير الحياة . . وقد تعرض بوجهك متقززا ، بل ترتعد فرائصك ويقشع بدنك لرؤية هذه الزيجات وقد أصطف أفرادها مثنى مثنى في صفوف قد تمتد أميالا في انتظار ( الفرج ) وأخذ دورهم إلى هذه « البوسيلجات » على حد تعبيرهم ، أي

« زرائب الخنازير » أجسادهم تقددت وتبيست من نار الشمس الحارقة ،  
وتدلت ألسنتهم ظمأً وعطشاً . . وفي النهاية بضع دقائق معدودة أو لحظات  
محسوبة . . فكم من كبرياء جرح ، وكم من كرامة أهدرت ، فإليت الإنسان  
ما خلق وياليت ما عاش !

## السلب وصلافة السوفيت

لم تكف الجاليات السوفيتية هناك بأوعيتها التي تنضح بأطياب الطعام ، وبما  
 لد وشهى من أرض الجزيرة ، بل يعيشون حياة العزلة البغضاء ، فلهم  
 مقاطعاتهم الحصينة التي لا يمرؤ امرؤ على الاقتراب منها وكأنهم أسياد القوم ،  
 ولهم من النوادي ما يميزها ، والمستشفيات ما يخصهم ، ولأطفالهم مدارسهم  
 المستقلة . . يهيمنون على مقاليد الأمور في البلاد فلهم السطوة العليا والقبضة  
 الكبرى ، لهم الأمر والنهى ، ولهم الطالع والصالح ، وما أعضاء الحزب  
 الحاكم غير دمي يحركونها كيفما شاءوا وحسبأ أرادوا . . إنهم يعيشون حياة  
 اللامبالاة . . حياة الهمجية والصلافة ، لا يعبتون بأحد ، ولا يقيمون وزنا  
 لمشاعر أو كيان الآخرين ، حتى لو كانوا - هؤلاء الآخرين - من الأجانب  
 المقيمين هناك سادة للدهماء والسواد الأعظم من الشعب غير أنهم عبيد  
 للشهوات والمجون فهم رعا ع وصعاليك المويوقراطية في البلاد ، فلا حازم  
 ولا رابط لهم وكأنهم خرجوا من بلادهم مصممين على الانطلاق والاندفاع بعد

كبت شديد وحرمان ، مصممين على التعالى بعد إذلال وطول أناة ، مصممين على ملء بطونهم بعد عصب ربطها . . مصممين على تغطية أجسادهم التى طال عريها . تراهم يجمعون على « المحل الدبلوماسى » والمخصص لأعضاء السلك الدبلوماسى ، والمقيمين هناك من خبراء الأمم المتحدة وكأنهم « قطع » قد تأكلت أغلاله أو انفكت أصفاده ، تسمعهم وقد عم بهم الصخب واللغط ذكور تنبج وإثاث تموء ، ولعل تجمهرهم وإحاطتهم لمداخل المحل فى تلك الساعة المبكرة من الصباح وقبل الموعد المحدد للعمل اليومى به لإشارة واضحة ولدليل قاطع على وصول إحدى السلع وقد طال انتظارهم لها . . وتزداد الزوبعة جيشانا عندما يندفعون إلى داخل المحل وقد فتحت أبوابه للعملاء . .

وناهيك عن ذلك ، فتعال معى أيها القارئ العزيز لترى الهرج والمرج وقد ملأ أرجاء المحل ، وما هى دقائق حتى يصير كل ركن فيه معثوثا ، فلا يلتزمون بنظام أو بتقاليد مرعية ولا يحترمون ذات الإنسانية . . وسرعان ما تجد نفسك فى حيص بيص تلاحقك الأيدى المتطايرة بمنة ويسرة ، وقد تصيبك لكزة مرفق أو ركلة قدم فتطرحك أرضا . . لا تهمهم سيدة ولا يأبهون لمسن أو رضيع ، وكأنهم قد أصيبوا حقا بـ « البارانويا » أى جنون الاضطهاد أو ألم بهم الذهان أو العته . . تعالى معى لترى كم يتهافون على تلك السلع وكأنهم العرى ذاته أو الجوع كله ، يتكالبون على الشراء منها بكميات هائلة لا يتصورها العقل وكأنها جلبت خصيصا لهم ، فلا يشاركون فيها أحد ، ويرغم ما غصت محلاتهم الخاصة وعجت به من سلع وبضائع فقد ندرت وتعاطمت . . سلوك لا يمكن تبريره بغير الأنانية بأجل معانيها ، والاستعداد الملهم للاستزاف بأشمل صورته . . يستحلون ما حرم عليهم ويستطيون كل ما هو مقيت وكريه . .

الجبروت والاستعباد عنوانهم ، والاستهتار والاستخفاف رمزهم . . فهم مروجو السوق السوداء هناك بما حرصوا على استترافه واقتنائه وبما تعالوا في اغتنامه ، فالسلطة لهم سكوت خائفة ، والقوانين لهم طوع مرنة واهنة ! . . وياويل من تسول له نفسه ويكون لغيرهم من العملاء ، فالسجن مأوى المواطن ، والترحيل جزاء الأجنبي . . ويا ليت سفارات بأكملها تلغى ، ويا حبذا لو خليت البلاد تماما من الأجانب ، فهم بلا شك مصادر إعلام ودعاية لمجريات الأمور ، ومذاهب الحكم في بلادهم ، بل قد يكون من بينهم من الجواسيس والخطرين من يهدد أمن البلاد أو يثير التذمر والعصيان ! . . وكما أن الدولة تحرم الاتجار بالعرض ثم تراها جليا وقد أباحت ، بل وظفته لصالحها ، فهي أيضا إذ تحرم الاتجار في السوق السوداء فهي التي تمارسه ، بل تؤكد في كل معاملاتها . . لقد كان لنا الحق كخبراء فنيين بالجامعة ومن الأجانب أن نتعامل - بالإضافة إلى المحلل الدبلوماسي « الدبلوتيندا » باعتبارنا خبراء للأمم المتحدة - مع المحلل المخصص للفنيين من دول الاتفاقات الثنائية مع كوبا ، وهو ما يعرف بالمحلل الفني « التكني تيندا » ومن هنا قد واثنا فرصة المقارنة بين أسعار المحللين . . فالمحلل « الفني » تتصاعد فيه الأسعار لتصل إلى ما قد يربو على عشرة الأضعاف لمثلثاتها بالمحلل « الدبلوماسي » ولا مبرر واضح سوى أن المعاملة في المحلل الأخير بالعملات « الحرة » وفي المحلل « الفني » بالعملة « المحلية » ولا يمكن تحت أى من الظروف اعتبار هذا الفارق الهائل مجرد ضرائب أو رسوم جمركية !

قد تلاحظ أيها القارئ العزيز مدى التفرقة بين فئة وأخرى ممن يعيشون أو يقيمون بالجزيرة ، سواء كانوا من المواطنين أو الأجانب ، ومدى التخصيص والتقييد الصارم في كل ما يتعلق بحياتهم واحتياجاتهم ، بل في الحال التي يصرح

لهم بالتعامل معها دون سواها ، فلا يمكن لغيرهم مجرد الدخول إليها أو حتى مشاهدة ما قد يعرض بها من بضائع أو سلع . . فلما قد يتميز به المحل « الدبلوماسى » من سلع وأصناف قد لا تتوافر بمحال المواطنين ، وتفاديا لما قد يثير فى نفوسهم من الشجون ، وتلاشيا لما قد يحرك فى قلوبهم من الحسرة والسخط ، فقد أسدلت ستائر واجهاته الزجاجية أو غطيت بما يخفيها عن أبصار الفضوليين !

وتذكرنى هذه الحقائق بقصة « السنيورة تمارا » قرينة « الدكتور ريفيرا » [ وقد سبقت الإشارة إليه ] عندما كانت تزور قرينتى فانتهزت فرصة احتياجها الطارئى إلى تسويق بعض احتياجاتها من المحل « الدبلوماسى » لتصطحبها إليه فى سيارتها العتيقة بأجزاء المتداعية . . ولم تكن قرينتى بعد قد قطعت إلى بواطن الأمور ، كما لم تنبهها « السنيورة تمارا » إلى هذه القيود ، بل على التقيض : فقد كان واضحا تعمدتها وسبق إصرارها منذ الوهلة الأولى على ارتكاب هذه المخاطرة الشنعاء !

وبانشغال قرينتى بتدبير احتياجاتها وإذ بأحد موظفى المحل يربت كنفها طالبا منها مقابلة مدير المحل بمكتبه لأمر هام . . وكم كادت تغيب عن وعيها من فرط الفرع عندما وجدت « السنيورة تمارا » فى حضرة المدير وقد انهارت أعصابها وخارت قواها وراحت تجهش ببيكاء يختلط بنبرات الخوف والوجل تستعطفه وتسترحمه وكأنها ارتكبت جرما فظا أو خطأ كبيرا ، فهل امتدت يداها لتسلب شيئا من معروضات المحل ؟ أو هل تسببت فى كسر أو تحطيم شىء مها تفه ؟ . . لقد كادت قرينتى تفقد صوابها عندما علمت أن جريمة « السنيورة تمارا » لا تتعدى « اقتحامها » المحل بما ليس من حقها كمواطنة ، كما أنها قد تضافرت

معها على اقرار هذا الإثم ، بل هذه الجريمة النكراء ، مما يعرضها معا إلى العقاب والوقوع تحت طائلة القانون !

ولولا إدراكه العميق لحقيقة الأمر ، واقتناعه التام بجهل قرينتي لهذه الانظمة وتلك القرارات ، وتأكدته الراسخ من عدم العودة أو تكرار ما ينافيها ما صفع عنها مدير المحل . . وقد لا أكون مغاليا أو متحيزا إذا ما قررت أن تصرفه النبيل هذا ما هو إلا محض استثناء لا مسوغ له سوى طيبة سجيته الشخصية ، وانعكاس المعاملة الحسنة التي كنا نتبادلها ، بل نخطي بها كعملاء لهذا المحل من العاملين به بصفة عامة . .

ولعل « السنيورة تمارا » حينما اندلقت إلى المحل تذكرت شيئا من الماضي البعيد ، الماضي بكل عظمته ورنخاته عندما كانت محلات وحوانيت هافانا العريقة وأسواقها العالمية المشهورة في « جليانو » و « برادو » ( انظر الشكل رقم ٨ ) والشوارع المحيطة بهما تتخيم وتكتظ بما هو فخم وعظيم ، وبما هو نادر وثمين ، تفتح مصاريعها لكل قادم ولكل والج ، فلها ما تريد ولها ما تستطيع . . لها من الخيار والانتقاء ما لا يشنها عنه أحد ، لا قيود ولا حرمان ، لا انغلاق ولا إذلال . وسرعان ما ارتبكت وقد تملكها الدهول والقنوط وكأنها تندب تقلبات الدهر ، فتركت لدموعها العنان لتنسب على خديها كالغيث وقد هطل ، والخور وقد فاض . . إنها لفي حيرة من أمر نفسها ، بل وقعت في ورطة وكأنها بين النار والرمضاء . . وهنا فقط تعرف إليها العاملون بالمحل واقتادوها إلى المدير ، فقد خان المراقبين التفرس ، وخذعهم التأمل والاستبطان أول الأمر ، فلا يمكن أن تكون هذه السيدة أجنبية حديثة العهد بها فانا !



(شكل ٨) - طريق « برادو » ذو الشهرة العالمية بروقة وثرء محلاته بما كانت تضم من أندر وأرق السلع والمعرضات . . تتوسط الطريق جزيرة عريضة بنيت وأرائك الاستراحات بها من المرمر الطبيعي الملون . . لقد أقفر الطريق وأصبح في طى النسيان . . ولم تعد محلاته تعرض شيئاً !



والحديث عن صلافة وتعسف السوفيت لا يمكن أن ينضب له معين ،  
قلوبهم قد تحجرت فلا رحمة ولا شفقة تليها ، وعيونهم قد جفت فلا يرقاً لها  
دمع ولا يعرف إليها سيلاً . . يكشرون دائماً عن أنيابهم ، فلا تجد الابتسامة إلى  
ثغورهم ثغرة .

إن ما حدث لابني في ذلك اليوم ما هو إلا تعبير صادق ونموذج حي لقحة  
وصفاقة هؤلاء الرعاع بما أوتوا من الغطرسة ، وبما جبلوا عليه من تصرفات  
تتنافى والعرف العام ، بل الأصول والآداب المرعية بين البشر . . فلقد كان  
يلعب مع أصدقائه فيما يحيط بمسكننا حيث أطلقوا لأنفسهم بعض العنان ، وإذا  
به « يحف » بسيدة كانت قد خرجت مندفعة من باب مسكنها ، فتوقف على  
الفور يستميتها علداً ويطلب منها الصفح . . ولكنها لم تعباً بما أبداه من حسن  
السرية ، ولم تقم وزناً لاعتذاره أو لخلدائه ، فقد اكفهر وجهها واستشاطت  
غضباً وراحت تويحه توبيخاً عنيفاً ، بل أمطرته وابلاً من السباب بما يعجز قلبي  
عن ذكره اشمئزازاً وتعقفاً ، وعندما توجس الشر منها - فقد كان في  
حديثها ما ينذر بالخطر - لم يجد بداً من أن يلوذ بالفرار ويولي الأدبار إلى حيث  
نسكن ، وسرعان ما رآها تتعقبه وتطارده وقد علا صونها بما يחדش الأذان ،  
وكأنها ثور هائج أو ذئب شرس يريد أن ينال من فريسته . . وهنا خف الخوف  
إلى قلبه وسيطر الذعر على وجدانه ، وقد أعياه التعب والذهول فتعثرت قدماه  
ليجدها تعقد ذراعيه وتثنى أحد مفاصله وتكيله من اللكمات ما جعله يصرخ  
ويستغيث مما نهبا أخيراً إلى ورطته ، وجعلني أخف إلى نجدته ، وقد أدنف على  
الغثيان . .

أتعرف يا عزيزي القارئ . . من هذه السيدة ؟ ولماذا كانت ثورتها البهيمية

هذه ، وتورها العارم هذا ؟ . . إنها سوفيتية تقترن بأحد الحرفين السوفيت ممن يطلق عليهم ، في مثل هذه البلاد ، الخبراء السوفيت ! لقد كان مبررها الوحيد لفعلتها الشنعاء أنه قد « استخف » بها « واستهزأ » حيث مزح في موقف يتطلب الجد ، وهزل في غير موضع الهزل . . فلقد افترت شفتاه عن بسمه في أثناء اعتذاره لها ! . . فيا للهول ، ويا للمصيبة ، بل يا للطامة الكبرى أن يقرن الإنسان اعتذاره بالابتسامه !

فالابتسامه في نظر السوفيت إهانة واستخفاف ! . . فلا عجب إذن أن تراهم دائماً عابسين متجهمين ، ولا غرو أن تراهم نكدى الطبع عكرى المزاج ، إنهم لمتغطرسون ، قساة الأفئدة ، همجيون ، لا يعرفون من قاموس المجاملات والقاليد المرعية وآداب السلوك العام شيئاً . . فهؤلاء هن نساؤهم . . مربوعات القامة ، مفتولات العضلات ، عاقدات الجبين ، لا يرحمن ولا ينصفن . . فما بال رجالهن ؟

على رسلك أيها القارئ العزيز ! تعال معي إلى النادي الرياضى الملحق بفندق « السيرا ميسترا » « أنظر الشكل رقم ٩ » حيث يصرح لنا كفتين بالجامعة بقضاء أوقات فراغنا هناك ، كى ترى كم بلغت غلظة القلوب أقصاها وفضاظة السجايا أعتاها ، ولكى تدرك كم من رحمة أهدرت ، وكم من شفقة زالت واندثرت . . فيها هو ذا ابني يتدرب على القفز فى الماء بحمام السباحة فارتطمت شفتاه بقاعدة « المنط » وأصيب بجرح فاغر ونزيف دموى حاد نقله على أثره أحد أصدقائه إلى حجرة « الإسعاف » بالنادى . . فما بالك وقد رفضت الممرضة « السوفيتية » المنوطة بالعمل مجرد استقباله بحجة أنه من غير « السوفيت » أو « البلغار » فهم نزلاء هذا الفندق ولا خدمة ولا إسعاف



(شكل ٩) - فندق « السراميسترا » هافانا بحمام سباحته المستطوع من الكاريبي ، بقاعته التسيحة والمتعددة وملهاه الليلى بفخامته وعظيم ماكان يقدم به من عروض عالمية نادرة . . أصبح الآن مقصوراً على السوفيت والبلغار كترلاء !

لغيرهم . . ! . . ومع احتدام الصديق وثورته تجاه هذا التصرف اللإنسانى وهذا السلوك اللأخلاقى اضطرت واجمة مهمهمة إلى تغطية الجرح بقطعة من الشمع اللصوق دون تطهير أو تضميد ، ولولا أن تصادف وجودى بالنادى وقت ذاك ، وقد علمت بالخبر فأسرعت به فى سيارتى الخاصة إلى المستشفى التابعين له لتزف حتى الموت . . فباويل من يعقد عليهم الآمال ! ويا ويح من يتصادق أويتعاش معهم من شعوب !



## كيف تنفذ الشيوعية إلى الشعوب ؟

وإذا كان السوفيت يتشدقون ويعلنون على الملأ والعالم أجمع ، ويكل تبجح ، أنهم يمنحون كوبا يوميا ما يربو على عشرة ملايين من الدولارات كإعانة « بلا مقابل » ، فهذا هراء ، بل هو الاستخفاف المقيت بعينه ! فليس هناك من الدول ، أيا كانت ، من تعطى ولا تأخذ ولو على المدى البعيد . . فالمقابل « العيني » و « العقائدي » يتجاوز ، بلا منازع ، أضعاف أضعاف هذه القيمة . .

فكوبا وهي أكبر حزر الهند الغربية مساحة ( حوالى ١٢٥ ألف كيلو متر مربع بما يوازي ١/٨ مساحة مصر الكلية ) وتعرف بـ « لؤلؤة » هذه الجزر تتميز تربتها الزراعية بنحصب لا مثيل له في العالم أجمع ، إذ تلو فيها نسبة أملاح الحديد والمنجنيز ، كما تهطل بها الأمطار غزيرة وترتفع بها درجة الحرارة بما يلائم زراعة أى نوع يعرفه الإنسان من المحاصيل والمزروعات الاستوائية وشبه الاستوائية ، مثل قصب السكر ( ٧ ملايين طن سنويا ) حيث يقطع ( يحش ) لمدة ٥ سنوات

متوالية ، الطباقي ( ٤٠ ألف طن سنويا ) وهو أرق الأنواع العالمية ويزرع في بينار ديلريو ، في غربي كوبا ( انظر الشكل رقم ١٠ ) ، الأناناس وتغل الأرض منه ٣ - ٤ مرات في السنة الواحدة ، الموز ، البن ، الكاكاو ، الموالح ، وخاصة الجريب فروت ، جوز الهند ، وكوبا تتختم بالثروات المعدنية وأهما الحديد ، النحاس ، المنجنيز ، الكروم ، الأسفلت . وبها من الغابات ما ينتج أرق الأنواع من خشب الأثاث مثل الماهوجني ، السيدر ، الصندل ، الأبنوس وغيره ، هذا بالإضافة إلى ثرواتها الحيوانية ( ٥ ملايين رأس من الماشية ) وثرواتها البحرية من الإسفنج والأسماك ، سرطان البحر . وتتميز كوبا بإمكانات سياحية عريضة ومتنوعة ، من آثار عريقة تحكي تاريخ وحضارة



( شكل ١٠ ) - « وادي بناليس » بمحافظة « بينار ديلريو » في أقصى الغرب من الجزيرة حيث بحر الطبيعة ، واتساع الأراضي ، والجو المناسب لزراعة أرق أنواع الطباقي العالمية التي أكسبت كوبا شهرتها في صناعة السيجار المعروف بـ « هافانا » .

الأسبان والقراصنة أمثال « السير هنرى مورجان » ورجال طبيعتها وسحر جبالها وغاباتها وما تحتويه من طيور وحيوانات نادرة ، كما تفرد بموقع استراتيجي هام في تلك المنطقة ، حتى أطلق ملوك الأسبان على « هافانا » العاصمة اسم « مفتاح وحامية جزر الهند الغربية ، وتطل كوبا على المحيط الأطلنطي من الشمال وعلى البحر الكاريبي من الجنوب ، وقد صدق خروستوف كولومبوس مكتشفها في عام ١٤٩٢ عندما وصفها « بأنها أجمل ما يمكن لعين بشر أن تقع عليه » . ومن هنا كانت كوبا مطمعا كبيرا للسوفيت ، ليس فقط لذاتها ، بل أيضا كمدخل لتغلغل نفوذهم في دول أمريكا اللاتينية ، كما كانت يوما ما مطمعا للأسبان في أعقاب اكتشاف كولومبوس لجزر الهند الغربية والعالم الجديد ، فقد جعلوا منها امتدادا لبلادهم في نصف الكرة الغربي . .

وإذا تحدثنا عن الأسبان فالوضع يختلف تماما ، فقد كانت كوبا - كغيرها أراضي العالم الجديد - أرضا بكرًا ، يستوطنها بعض القبائل من « الهنود الحمر » بما كان يطلق عليهم « الآراواكر » . . وقد كانوا من المسلمين ، فقتل منهم الكثيرون لاعتراضهم على العمل بالسخرة بمناجم الذهب ، والتي كان الأسبان يحلمون بجمعها ، ثم كان لابد لهم بعد ذلك - خاصة أنهم قد اندلقوا في عادة التدخين التي تعلموها عن « الآراواكر » - أن يستوطنوا هذه البلاد ويستخدموها كمزارع لإنتاج قصب السكر والدخان والقطن ، لما كان لها من أهمية اقتصادية وسوق رائجة ببلدهم أسبانيا . . وقد اختلطوا هم وهؤلاء « الآراواكر » والعييد الذين أتواهم من أفريقيا خصيصا لأعمال الزراعة التي اتسعت ، ومن هنا أصبح السكان الشرعيون والحاليون للبلاد هم ممن يعرفون الآن بالأسبانية بـ « الكريويوز » أي « المولدين من أبوين ، أحدهما ملون والآخر أسباني

أو أوربي بصفة عامة حيث نرح إلى كوبا أيضا بعض من الفرنسيين المقيمين  
بجزيرة « هايتي » عندما قامت ثورة زنجوها في عام ١٧٩١ بزعامة « لوفرتير »  
ولا شك أن فيدل كاسترو ذاته هو أحد هؤلاء « الكريويوز » . إذن فشتان بين  
من استوطن هذه الأرض البكر - وأصبح سكانها الحاليون من سلالاتهم -  
وبين من يغتصبها من هذه السلالات . .

والسوفيت وإن كانوا حقاً لم يغتصبوا كوبا عن طريق القوة أو السلاح فقد  
حرصوا على سلبها أو اغتصابها بأسلوب التصادق والتعاضد . . فهذه هي إحدى  
فلسفاتهم الجديدة في السيطرة والاستتراف ، يتحركون على هديها ومن خلالها ،  
كما حدث أخيراً في ليبيا ، وكما كاد يحدث في مصر .

وسياسة التصادق تتم عادة عن طريق الخديعة « والانتهازية السياسية »  
كإبداء الرغبة في الحماية الخارجية أو تدعيم واستقرار الأمن الداخلي ، أو في  
المساعدات الاقتصادية ، فإذا لم تستطع أو تستجب السلطة الحاكمة في البلاد  
لهذا التصادق السوفيتي أو تبدى رفضها له ، فما على السوفيت إلا القيام  
بمحاولات تستهدف قلب نظام الحكم بهذه البلاد والإطاحة بالسلطة فيها ،  
مدعمة حفته ممن يمكنني تسميتهم بـ « المتربصين » أو « المتعطشين » إلى الاستيلاء  
على السلطة الحاكمة في بلادهم تحت شعار « حركات التحرر الشعبي » ، وهم  
من الموالين للشيوعية والاتحاد السوفيتي ، كما حدث في « انجولا » و « أثيوبيا »  
و « اليمن الشعبية » و « البرتغال » و « إيران » وغيرها . .

ولكن تحقق نجاح هذا « الانقضاض » على السلطة الحاكمة بالبلاد لابد أن  
تنفذ بسموم مذهبها وعقائدها ودعاياتها الزائفة والمغرصة إلى أعماق القاعدة  
العريضة من أفراد الشعب بتعصيد ومساندة هؤلاء العملاء غالباً عن طريق إقامة



بعض المنظمات المتسترة وراء « الأديان » انتفاءً للشبهة باعتبارها دولة « علمانية » لا تعترف بالأديان أو الروحانيات .

ويغدق قادة الكرملين المال والسلاح على هذه الحفنة من العملاء وما يؤازرها من منظمات داخلية أو خارجية بنفس الأسلوب المتبع مع فئة « التوتاليتاريا » بالبلاد الموالية لهم . . والأمثلة الآن واضحة وكثيرة في كل من آسيا وأفريقيا وأوروبا عن طريق المسيحية أو الإسلام .

ولقد أصبح لليبيا وكوبا أهمية خاصة فيما أسميه بـ « الثلاث الماركسي » المتكامل . . فاليبيا دور التمويل المادى والضغط السياسى ، وكوبا دور الإمداد بالمرتزقة من المحاربين والعسكريين ، أما قادة الكرملين فلهم دور الإمداد بالأسلحة والمعدات العسكرية . .



## الشيوعية واقتصاديات الشعب الكونى

. . وحتى يضمن السوفيت استمرار خضوع البلاد الموالية لها فإنها تعمل على إضعافها اقتصادياً وتأخرها علمياً وتكنولوجياً . . وناهيك أيها القارئ العزيز عن استنزاف خيرات هذه البلاد وحرمان شعوبها ، وناهيك أيضاً عن الإيهام بمنحها المساعدات المالية والعسكرية . . فالنظام الشيوعى الاقتصادى فى حد ذاته يفتقر إلى الحافز سواء كان إيجابياً أم سلبياً ، ويفتقر بالتالى إلى التنافس وما يترتب على ذلك من عدم تحسين الإنتاج بل غالباً إلى تدهوره ، فالشعب الجائع العارى المكبل يستطيب بل يشوق إلى أى شىء يقدم إليه ، ولو انحطت وسقمت نوعيته ، لأنه فى النهاية ليس له من خيار أو تفضيل !

فها نحن أولاء ، كخبراء للأمم المتحدة وكخبراء فنيين بالجامعة ، كنا نتميز عن أى فئة أخرى من الأجانب ( باستثناء السوفيت بالقطع ) لأننا نجتمع بين الدبلوماسية والفنية ، فلنا الحرية والخيار فى التعامل بين المحليين « الديبلوماتيين » ، « التكنوقراطيين » ، ولنا الحرية والخيار بين ارتياد أماكن

الترفيه « الدبلوماسية » و « الفنية » . . وبالطبع فإننا نعيش حياة مستقلة عن النظام الشيوعي القائم بالبلاد ، فلا نحمل دفاتر للتموين أو بالأحرى دفاتر « للجراية » كالمواطنين البؤساء ، ولا تحديد لنا بالنسبة للاستهلاك الفردى من مأكّل أو ملبس أى « بالتعيين » ، ولا قيود علينا فى الخدمات وغيرها من المتطلبات اليومية للبشر المتحضر أو غير المتحضر ، بالإضافة إلى حقوقنا الدبلوماسية فى حرية الاستيراد من الخارج وعدم الخضوع للقوانين الضرائبية أو الجمركية المحلية ، ومع كلّ فقد قاسينا الحياة فى ظلال هذا الجو السياسى والاقتصادى الرهيب ، فاحتياجاتنا اليومية كانت ترتبط وتقيّد بما هو موجود ومعروض بالمحلين نوعاً وكماً ، وغالبيتها من الإنتاج المحلى المتواضع وغير المتطور ، وأما الطبيعة الخلابة التى تميز بها جزيرة كوبا « لؤلؤة جزر الهند الغربية » ، فقد أفتقدت بهاءها ورونقها نتيجة إهمال الأماكن السياحية وقصور الخدمة فيها ، بالإضافة إلى الجو السياسى الرهيب ، والحياة الاجتماعية البغيضة التى تهيمن عليها وتظللها . . ويمكن القول إننا عشنا حياتنا هناك وكأننا كنا فى « قفص ذهبي » لا حركة ولا حيوية ، بل ذبول وإخفاق . . فلقد امتلأت نفوسنا بالحسرة والرتاء تجاه أفراد هذا الشعب الأصيل ، لهذا الشعب الذكى المرح الفضفاض . . لهذا الشعب وتاريخه الملىء بالنضال والكفاح . . الشعب الذى خاض الحرب الضروس . . حرب السنوات العشر ( ١٨٦٨ - ١٨٧٨ ) ضد العبودية ، وثورة ١٨٩٥ التى أدت إلى حرب الاستغلال عام ١٨٩٨ . . لهذا الشعب الذى أخرج الأبطال أمثال « ماكسيمو جومز » ، « بدرو دلجادو » وغيرهم .

لقد كانوا يستحقون منا ومن كل ذى قلب رحيم المؤازرة والتعاطف ، لقد

كانوا يستحقون الإخلاص والتفاني في مساعدتهم وكأنهم من بنى أوطاننا وأجناسنا ، لقد كانوا يستحقون منا بذل الجهد في محاولة إدخال السرور إلى نفوسهم الحزينة وإخراجهم من هدتهم ؛ وحالة الكآبة والغبن التي تسيطر على كيانه وفكرهم ، كان لابد لنا من مراعاة شعورهم وتقدير مواقفهم التي لا يملكون من أمرها شيئاً .

فلم ننظر مثلاً حتى يأتينا « ريكاردو » الأكبر كى يفعل بنا ما فعله « ريكاردو » الأصغر بابنى يوماً ما . . فلقد هجرنا ملابسنا الرسمية وثياب السهرة إلى غير رجعة ، واستبدلنا بها ما هو متواضع وبسيط . . فها هو ذا نوع من القمصان يطلق عليه هناك « الجوايايرا » كنا نرتديه في الحفلات الرسمية كبديل للياقة ورباط الرقبة . . كيف لنا أن نتأق والناس من حولنا مجردون من ثيابهم ؟ كيف لنا أن نرتدى البزات « الملكية » والناس تحفنا بأسماءهم البالية ؟ إننا لسنا من أسياذ القوم ، ولسنا ممن افتقدوا الإحساس فلا نقيم وزناً لمشاعر الآخرين ، إننا لسنا من المتكبرين المتغطرسين الذين يختالون على الناس . . فالغرور والزهو غالباً ما يؤدي إلى الفشل ، وقد صدق المثل القائل : « قبل السقوط تشامخ الروح » !

كيف لنا أن نستطيب الغذاء والناس من حولنا تضطرم وتتلوى جوعاً وعطشاً ؟ كيف لنا أن نفرط في الطعام والناس من حولنا يعيشون على أسلوب « حينما سقط لقط » ؟ كيف لنا أن نحيا حياة الحرية والناس من حولنا مغلة أعناقها ؟ كيف لنا أن نستشرق الشمس والناس من حولنا تستغريها ؟ كيف لي أن أعمل وأجد كل من حولي عن العمل معرضين عازقين ؟ فالنساء يقضين الصباح في التزيّن والرجال في لقّو الهموم والتذمر منهمكون . . ولا يلبث الجميع

أن يختلقوا الأعذار ، ما بين الذهاب إلى المقصف ، فقد حان وقت تناول .  
 اليوغورت « الزبادى » وأحياناً « البودريو » ( حساء بتوابل هندية كان يُقدم  
 قديماً للفقراء ) ليطول بهم المقام هناك ، وما بين الخروج أفواجاً لزيارة زميل  
 أوزميلة قد تغيت لمرض ، وما بين التوجه للعزاء أو مشاطرة الأحزان في موت  
 صديق أو قريب لأحدهم . وما إن تحل فترة ما بعد الظهرية حتى يستقبلوها  
 بالدخول جماعات إلى غرف الاغتسال وقد انتشرت في أماكن العمل لتسمع  
 أصوات الصخب واللغط وقد علت ، وأحياناً قرع الطبول بما يصم الآذان . .  
 ويخرجون بعد ذلك ليجدوا من المبررات أقواها ومن التفانيين أبدها . . فهناك  
 اجتماعات الحزب ولا بد لهم من حضورها والحرص على متابعتها وإلا . . . !  
 هناك المواعيد الدورية المحددة لقص شعورهم أو تسلّم ملبوساتهم ، والتي إن  
 فاتتهم أو تغافلوا عنها ولو ليوم واحد فلا مفر من الانتظار حتى الموعد اللاحق  
 بفترة بعيدة قد تصل إلى ٤ سنوات كاملة في حالة بعض أنواع الملبوسات  
 كالبنطلونات أو الثنورات . .

ولا أخفيك سرّاً يا عزيزى القارئ أنني كنت أضيق ذرعاً وكأنه لم يعد يبق  
 لى فى قوس الصبر مترع حينما كان يأتينى ذكر هذه الاجتماعات الحزبية ، على  
 حين كنت على النقيض - أطرب ويمتلئ قلبى بهجة وسروراً - عندما كنت  
 أصرح لهم ، وبنفس راضية مطمئنة ، بالذهاب لتسلّم ما قد يستر أجسادهم  
 أو يقيم أودهم ولو لحين ، وما قد يعيد النضارة إلى القلوب ولو للحظات . . فقد  
 كانت فرحتى من فرحتهم وسعادتى من سعادتهم . . فما أشوق الإنسان وما أشد  
 تلهفه فى أرض البؤس والجفاء إلى كل لحظة رضاً وبهاء ، وإلى اغتنام الفرصة  
 لرؤية كل قطرة ندى وارتواء !

ولعل من الأسباب الرئيسية التي تدفع بالفرد الكوي إلى مثل هذا التكامل وعدم الإقبال على العمل ، بل التهرب منه ، هو افتقاره إلى الحافز الإيجابي أو السلبي ، وقد سبق لنا الإشارة إلى هذه النقطة (أنظر صفحة ٩٧) . غير أنه يفضل في الواقع القيام بما يعرف بالأسبانية « لاپور قولانتاريو » أى « العمل التطوعى » وذلك إرضاءً بل في الواقع تخوفاً من السلطة وحتى قد يلقب بـ « الممتاز » في تقريره السنوى ! والحافز هؤلاء « الممتازين » هو الترخيص لهم حسب نوعية ورتبة هذا الامتياز إما بشراء سلعة أو هدية واحدة أو بقضاء سهرة يتيمة الدهر بإحدى المسارح أو الملاهى الليلية . . ولا عجب أن تعلم أيها القارئ العزيز أن الغالبية منهم يفضلون قضاء هذه السهرة ، لا لأنهم تواقون متعطشون إلى ما قد يخرجهم من صمتهم الطويل وحزتهم العميق ، بل لأن الشعب الكوي بطبيعته وشيمته يهوى المرح والجلل ، شعب جُبِلَ على حب وتقدير الفن والموسيقى ، فلا غرو إذن أن تجد من أفراده الكثيرين ممن يتجههرون عند مداخل الأوبرا وصلات الموسيقى ، كى يتصيدوا بعض الأجانب ممن منحوا تصاريح مجانية يسألونهم الاصطحاب لمشاركتهم مشاهدة بعض عروض « البالية » أو الاستماع إلى بعض المقطوعات الموسيقية الكلاسيكية العالمية . . وقد لا ينحى عليك أيها القارئ العزيزكم من القيمة النقدية التي يدفعها المواطن « الممتاز » فى شراء هذه السلعة أو لقضاء تلك السهرة . . فعلى الأقل عشرة أضعاف ما يدفعه الأجنبي بالعملة الحرة . . وهذا يؤكد لك مرةً أخرى كيف أن الدولة تمارس حقاً تعتبره مشروعاً لها ، ألا وهو المعاملة والاتجار بالعملات ، وبطريقة « مستترة » عن طريق السوق السوداء !

والنظام الشيوعى بتدعيمه « العمل التطوعى » وبما ميزه به عن العمل

الأصلى يمنح الفرد مثل تلك « الأوهام » في صورة حوافز ، قد جعل منه في الواقع « عملاً إجبارياً » بل نوعاً من « العبودية والسخرة » لابد لأى فرد من مزاولته ووضعه نصب عينيه ، لا لأنه « بطاقة المرور » لارتداد هذه الأوهام فحسب بل - من الأهمية بمكان - لتجنب عداوته من أفراد « اللامحة السوداء » . . . ويا ويل من يدرج اسمه بتلك اللامحة ! . . . فقد يفصل من وظيفته ويكون السجن مثواه ، أو ينقل على الأقل إلى أدنى الأعمال وأشقها ، أو قد يحرم من بعض « الجرايات » !

« والعمل التطوعى » باتساع قاعدته وتشعب أغراضه وأهدافه بما يرتبط بكل النواحي الاقتصادية والاستثمارية في الدولة لابد أن ينطوى ، بل يعتمد بالدرجة الأولى على التخصص الدقيق والخبرة الفنية والممارسة العملية والطويلة ، بما لا توفى ثماره أو تتحقق بإقحام الفرد في أعمال ، لا تنفق أو لا تمت بصلة إلى عمله الأصلى أو تخصصه الفنى . . فكيف لحام أو مذيع مثلاً أن يقوم مرة بأعمال زراعية فنية ، كقطع قصب السكر وجمع الأناناس أو « الجريب فروت » في الحقول ، ومرة أخرى برصف الشوارع أو مد مواسير المجارى ؟ وكيف لطبيبة أو ممرضة مثلاً أن تقوم تارة بأعمال التغليف والتعبئة لبعض المنتجات الزراعية أو الصناعية ، وتارة أخرى بتقليم بعض النباتات أو تشذيب الإسفنج عند اصطياده ؟

ولقد كنا كأجانب في زيارة لأحد مصانع « السيجار » العريقة بهافانا ، ولكم كانت دهشتنا عندما فوجئنا بقسم « التغليف اليدوى » وقد أغلق تماماً ، ولمدة أسبوع كامل حيث كُلف القائمون بالعمل فيه بالمشاركة بـ « العمل التطوعى » في بعض الأعمال الترميمية والإصلاحية بمبنى المصنع ! وهناك



ملاحظة أخرى تستحق التنويه ، فلقد أنزلت في قلوبنا الحسرة والألم . . وهي أن ما يزيد عن ٦٠٪ من آلات هذا المصنع الهائل قد تعطلت عن العمل تماماً وأصبحت جثثاً هامدة لأحراك فيها ، فهي أمريكية الصنع وليس لها من قطع الغيار ما يعيد إليها الحياة والحركة . . أين إذن السوفيت ؟ أين إذن ما يتشددون به من التعاون والصدقة ؟ وأين المساعدات الحقيقية والفعالة ؟

إن هذا العمل الهوجائي ، وهذا الأسلوب المشوش والمربك والذي يحيد بالأفراد عن إتقان أعمالهم الأصلية أوحى القيام بها ، فإنه وإن دل على شيء فلا يدل إلا على التخريب بمقدرات هذا الشعب الأصيل الكريم المحتد ، والإسفاف بالعقول .. فهو لا يتعدى كونه مظاهرة تضاف إلى سلسلة المظاهرات الشيوعية الممتدة ، والتي لا تستهدف في ظاهرها سوى جذب الأنظار ، وفي باطنها وواقعها تقويض مرافق الدول التي تتصادق معها ، والإضرار بمصادر ثرواتها ، وعرقلة الاستثمارات الاقتصادية بها . . وحتى يمكن إذعان هذه الدول لرغبات قادة الكرملين ورضوخها إلى متطلباتهم وجعلها طوع بنانهم ورهن إشارتهم ، ولتكن دائماً في حاجة ملحة إلى تدخل الاتحاد السوفيتي في شئونها الداخلية وسياساتها الخارجية على حد سواء ، بل لاقتناص الفرص للإلزام المباشر بمجريات الأمور بها ، وتحريكها كيفما يريد القادة تحت ستار التعاون الاقتصادي وشعار الصدقة ، عن طريق توظيف وإنخام الأجهزة التنفيذية والإدارية والفنية بالعديد ممن يطلق عليهم : « الخبراء السوفيت » !

هكذا هم السوفيت أينما تصادقوا مع الشعوب . . فهذا هو أسلوبهم ، وهذا هو النظام الشيوعي أساسهم ؛ تحطيم للاقتصاد ، ودعوة صريحة إلى الإذلال والخنوع . . كل ما يهمهم هو استتباب المقام وتثبيت الأقدام واستتراف

الخيرات - إنهم يدفعون بالأفراد إلى الطاعة العمياء وكأنهم الآلات والدمى . .  
يدعونهم إلى التمسك بالنظريات والفلسفات الجامدة مثل « المادية الجدلية »  
« لكارل ماركس » ، « فريدريك إنجلز » بما يصفون عليها من حالات  
الخداعة البراقة وأفانين الزيف والدجل . . لقد جعلوا منها الشغل الشاغل  
لأفكارهم ، بل الملاذ لإزجاء الوقت وقتله ! لم يبق لديهم وقت للعمل بقدر  
ما يفرض عليهم من وقت للانصياع لما له منصتين فاغرى الأفواه ، زائغى العيون  
وكانهم البلهاء !

فما بالنا وقد أتينا لنجد أماننا الذكاء المتقد وقد خبا ، والرغبة الملحة في  
ارتشاف العلم وقد هبطت ، وما حيلتنا وقد وصلنا لنجد تجاهنا الحيوية وقد  
خمدت والمرح وقد غفا ، وحسن الطوية وقد انطوى . . كيف لنا إذن أن تؤدي  
رسالتنا ونحن بها متمسكون في هذا الجو . . جو اللامبالاة وعدم الأكرات  
الذى لم نكن نتوقعه قط ؟ كيف لنا أن نعيدهم إلى طبيعتهم ونسترجع فطرتهم بل  
نحث خطاهم ؟

لقد أمسكتنا بأول الخيط فلم يكن صعباً إدراك مدى افتقارهم إلى الحافز ،  
أى حافز ، ومدى احتياجهم إلى التبنى والرعاية ، وموالاتهم بالبذل والعطاء  
العلمي والروحي الذى لا حدود له .

ويعزيمة صادقة وإصرار جلد ، وكياسة لا يضاهيها مثيل ، تمكنا من إقناع  
مسئولى الجامعة هناك بضرورة انخراطهم في سلك الدراسات العليا تمشياً مع  
العرف الدولى والجامعى العام . . . وقد كان مبرراً موقفاً تجنبنا به جرح شعورهم  
أو التهكم على سياساتهم . . ولم نكتف بعد ذلك بهذا الحافز الأدبى ، بل ثابرتنا  
على مؤازرتهم والأخذ بأيديهم قدماً إلى الأمام ، وجعلنا من أنفسنا مثلاً عملياً ،

فقد تمسكنا بالمثل القائل : « درهم من القدوة خير من قنطار من الوعد » ،  
واتخذناه شعاراً لنا . . فلم يقتصر دورنا - كخبراء - على مجرد النصيح والتوجيه  
وإبداء الاستشارات الفنية والعلمية بل شاركناهم التنفيذ وعملنا معهم بأيدينا  
جنباً إلى جنب ، كما لم تقتصر رسالتنا على الوقت الرسمي وساعات العمل  
المحددة ، بل امتدت لتشمل الإجازات ونهايات الأسبوع في أغلب الأحيان . .  
لقد قدحنا زناد مسيرتهم بالإحراج ، كيف يتخذون من اللامبالاة مسلماً بينما  
الخبراء القادمون من مشارق الدنيا ومغاربها فاليهم بالعطاء مفرطون ؟ كيف لهم  
التغيب في نهايات الأسبوع والخبراء قائمون على العمل جادين ؟ ومن هنا تحركت  
المسيرة الهوينى ، وما لبثت أن خطت بخطى واسعة فتحقق المراد وانتعشت  
الأفئدة واطمأنت النفوس . . ولقد كنت حقاً في أوج سعادتي عندما تركت  
« هافانا » ومبنى الذين عملوا معي يكاد يكون الأوحـد بما يشع من ضياء يتبدد  
معه ظلام الليل الخيم ، وبما يبعث في نفوسهم الطمأنينة إلى غد مشرق بالعمل ،  
فلقد أصبح دستورهم أن يصلوا الليل بالنهار بالتناوب فيما بينهم مواصلة للجهد  
وتحقيقاً للآمال ، فلم يعد هناك حاجة إلى من يدفعهم أو يحثهم على العمل ، فهو  
سلواهم الوحيد يجدون فيه كل الإخاء والتعاون ، ويشعرون من خلاله بما يخفف  
من وطأة الحياة ، يأنسون له ويتزعمون به .

فهذا هو الشعب الكوبي الأصيل الذى يريد أن يحيا حياة حرة شريفة ،  
يناضل ويجاهد في سبيل الرفعة والرفاهية . . هذا هو الشعب الكوبي التواق إلى  
قيادة مخلصـة واعية تأخذ بيده إلى بر الأمان ، تناصره وتدعمه وتؤمن له الحياة ،  
وتفتح أمامه الآمال الكبار .

عندما أطيح بحكم « باتستا » في عام ١٩٥٩ لتحل محله السلطة الحالية

للبلاد كانت ( لؤلؤة » جزر الهند الغربية بشعبها الذى لم يتعد فى تعداده وقت  
ذاك خمسة ملايين ونصف نسمة - يمتلكون ما يقرب من خمسة ملايين رأس  
من الماشية تتخم بها مراعى محافظة « كما جواى » ( أى بمعدل رأس لكل فرد  
تقريباً ) . . وناهيك بالطبع عن الخيرات الأخرى والمتعددة التى كانت -  
ولا تزال - محط أنظار واهتمام السوفيت ، كما كانت فيما سبق محط أنظار  
وغارات قراصنة أعالي البحار من الإنجليز والفرنسيين والهولنديين فى القرن السابع  
عشر . فتعال معى أيها القارئ العزيز لترى كم يقاسى الشعب الكوبى الآن من  
الحرمان والتعطش إلى اللحم وتعطشه إلى السكر ، وإلى أى شىء آخر ! وما لحم  
« التعيين » الذى قد يصرف إليه غراراً سوى نوع ممن يطلق عليه الأهالى  
بالأسبانية « تيرنيا » ( أى ما يصعب مضغه ) .

وهكذا ترى السوفيت مصممين على استنزاف كل ما فى جعبة وحيازة هذا  
الشعب من خيرات طائلة ، بل دائبين على اغتصاب كل ما تتجه أياديهم  
المرتعدة تحت هيب السياط ووطأة الوهن والسخرة .  
فلم تعد كوبا - وبحق - إلا أرضاً تكاد تكون خاوية الوقاض ، لا يمتلك  
ذووها شروى نقيراً .

## المقايضة والتعاطف بين أفراد الشعب

لم يعد هناك من الزاد ما يمكّن الأهالي حتى من اقتسامه أو المشاركة فيه عملاً بالمثل القائل : « لقمة هنية تكفي مئة » ! وإنما « المقايضة صارت سيّلتهم الوحيد إلى التعيش ، لا - بالطبع - عن فائض أو متوفر لديهم عملاً بالمثل القائل : « لا تقايض إلاً بالفايض » ! وإنما عن استغناء اضطرارى وهجر كليّ أو جزئيّ لبعض من أساسيات أقواتهم تبعاً لدرجة الحاجة والتفاوت الطبيعي بين الفرد والآخر ، وكأنهم بذلك قد أضافوا إلى سِفَر المآثورات العلمى مثلاً كونيّاً مستحدثاً ربما يقول « قايض يروحك فالحياة للظالم أحوج » !

فمن الأمور الطبيعية مثلاً أن ترى هناك بعض الآباء على المائدة قد قايضوا أطفالهم باللحم مقابل الخبز ! فالأطفال أحوج منهم مؤكداً إلى اللحم فهم لا يزالون في طور الإنماء وبناء الأجساد ، أما الكبار فقد عاشوا حياتهم من قبل وأى حياة ! هكذا يقولون وقد مطّوا شفاههم تعبيراً عن الاستياء وعدم الرضا . . . وهناك من يقايض بالسيجار أو السجائر مقابل البن أو الشاي . .

وهكذا ، ولعل هذه الوسيلة من التعايش تذكرنا بقصة الطفل « ريكاردو » عندما أراد أن يقايض ابني بلعبته الوحيدة مقابل قطعة واحدة من الحلوى [ انظر صفحة ٤٥ ] وكما تكون مخطئاً أيها القارئ العزيز أن تعتبر هذا الأسلوب من التعايش مجرد نوع من « تبادل المنفعة » كالأقائم أو الشائع بين بعض النباتات والحيوانات ، خلواً من العواطف والأحاسيس . فلقد عشت حياتهم عن قرب ، وكنت مدققاً وفاحصاً لكل ما يدور من حولي ، ذهبت بعقلي وفكرى إلى أعماقهم ، أتدارس انفعالاتهم وأنقب عن بواعثها . . أقارن الماضي بالحاضر ، وأتعرف على غرائزهم وما فطروا عليه وما قد انتهوا إليه .

فمن قبائل « الأراواكر » الهندية قد ورثوا المسألة وطبية السجية ، فلم يكن هؤلاء قط من المخربين المتعطشين للدماء كقبائل « الكارييس » والذين أبقوا على جنسهم ، ولا يزال الكثيرون منهم يعيشون حتى يومنا هذا في جزيرة « الدومينيكا » بشرق البحر الكاريبي ، وعن الأسباب والأصل العربي فيهم مديد ، فقد ورثوا الكرم والعواطف الجياشة . . وأصارحك القول يا عزيزي القارئ أنه ربما يندر أن نجد شعباً يعيش تلك المأساة وهذا النظام السياسى الذى يفرض القسوة ويسلب القيم والروحانيات ، ولا يزال بالرغم من ذلك تغلبه الفطرة المتقدمة بالعواطف ، والغريزة المتميزة بالمشاركة الوجدانية والمواساة .

فهذه إحدى اللاتي عملن معى بالجامعة ، قدمت يوماً تحتال في مشيتها ووميض الفرح في عينيها لتومئ لزملائها وزميلاتها بالتجمع من حولها ، وسرعان ما فطنوا إلى حقيقة فرحتها وسر بلوغها تلك الذروة من النشوة ، فلقد أتت إليهم بواحدة من ثمار « القشطة » ربما قد حصلت عليها - فى اعتقادى الشخصى - بأسلوب « حيثما سقط لقط » ! كيف لها أن توزعها فيما بينهم وهو يزيدون عن

عشرة أفراد في حين أن بذورها قد تقل عن هذا العدد ؟ . . لقد كان حدثاً إنسانياً فريداً ، حدثاً تنوعت جنباته بكل ما يحتويه من معاني التعاطف والتضحيات ، أبت أن تأخذها الأنانية وتأكلها خفية وهي في الطريق إلى الجامعة ، وأرادت أن يشاركها زملاؤها المحرومون تلك « الغنيمة » النادرة . . يشاركونها تلك السعادة الخاطفة . ولقد جاءتهم الفكرة فراحوا يخلطونها بالماء وبما لديهم من المخصص اليومي من سكر الشاي والبن مستعملين أحد « خلاطات » المعمل . . ولكم طفرت الدموع من عيني فرحاً وأسى فلقد مزقتني العواطف والانفعالات المتضاربة عندما تقدمت إلى هذه السيدة لتقدم إليّ - وفي الصدارة - « أنبوية اختبار » لا يعلو بها هذا العصور سوى بضع مستيمات لشرب معاً نخبناً ، ولأشارتهم الفرحة بتلك الأنابيب وما احتوت وكأنها الفضة أو شجرة السندر البيضاء ! إن الكلمات لتقف عاجزة عن التعبير الصادق عما كان يجيش في صدري لحظتها تجاه هذا الثراء النفسي ، وما قد شعرت به حقاً نحو هذه القلوب من الاحترام والإجلال .





## « الجستابو » والأمن الشيوعي

لقد جاء فيما سبق ذكر « التوتاليتاريا » وكما علمنا فإنها الفئة التي يتكون منها الحزب الأوحده والحاكم كما هو الحال في البلاد الشيوعية بصفة عامة . . وبالرغم من أن « التوتاليتاريا » قد يكون لها « السلطة التشريعية » واضعة القوانين فإنها تعتبر عموماً ذات سلطة « اسمية » لا تملك غير الموافقة والبصم على ما قد يأتيها من أوامر عليا . ونظراً لما جُبل عليه البشر على مرّ العصور ومنذ أن عرف الإنسان الحياة بكل ما فيها من حرية التعبير والحركة وحرية العبادة - كثرات بشرى - فن الصعب على أي فرد ، مهما كان هذا الفرد ، أن يجد فرداً واحداً أو حتى حفنة من الأفراد ، وقد تملكوا من السلطة ما يجعلهم قادرين على كبت هذه الحريات والإطاحة بكل هذه القيم البشرية . . لهم فقط الأمر والنهي ، وللدهاء وسواد الشعب الطاعة وعدم الاعتراض أو إبداء الرأي . وإزاء تلك الصور البشعة والتي سردنا بعضها كنموذج للحياة الكوبية تحت ظل الحكم الشيوعي الإرهابي - وما هو إلا انعكاس واضح وأكيد للقبضة

الحديدية التي يهيمن بها قادة موسكو على السلطة القائمة بكوبا وعلى مقدرات الأمور لشعبها - فن البديهي خلق وإشاعة جو من الإرهاب السياسى ، يعيش الناس فى غضونه وتحت وطأته ، كأسلوب حتمى لاستتباب هذا النظام ولضمان استمراره . . ولكى يتحقق ذلك تلجأ مثل هذه الدول إلى أعمال الجاسوسية المقيتة وإلى إذكاء البوليس السياسى بما يشبه « الجستابو النازى » والذي ألفه « أدولف هتلر » فى عام ١٩٣٣ ليعمل تحت إمرة « هينريش هيملر » حفاظاً على استقرار الحكم النازى الدكتاتورى ، والضرب على أيدي المعارضين له ، ولقد ظل يعمل فى سطوة وفاعلية بغیضة إلى أن سقط عهد النازى بانتهاء الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥ . .

فلا غرو إذن أن يرى الفرد الكوبى عمليات القبض الفجائية بل اختفاء العديد من الأفراد كأمر طبيعى ويومى ، ولا عجب - كما عرفنا من « الرفيق ميجل » - من أن الفرد هناك لا يأتمن على حياته حتى ولو كان من كبار اعضاء الحزب الشيوعى الكوبى ، كما لا يمتلك الثقة ولا الاطمئنان حتى إلى أقرب الناس إليه من أفراد أسرته . . وكثير من الأفراد - ولجود الوشاية بهم أو أحياناً لجرد الاشتباه فى عدم ولائهم للسلطة ، أو لتدميرهم من الأوضاع السائدة - يجدون أنفسهم وقد سيقوا للعمل بالسخرة فى المناجم وقطع الأخشاب بالغابات ، تحت حراسات مشددة وتحت لهيب السياط ووسائل العنف والتعذيب . . ومن الأشياء الغريبة حقاً أن تجد من الأطفال الكثيرين ممن قد شجعتهم السلطة على التجسس على ذويهم ، حيث - كما رأينا من الأحداث - إن الأطفال أكثر الضحايا إيماناً واقتناعاً بالنظام الشيوعى وبالسلطة فى البلاد بما يلقنونه من الزيف ، ولسهولة الانقياد لصغر عقولهم ولعدم درايتهم بمجريات

الأمر أو أعاقها ، أضف إلى هذا الستار الحديدي الذى يعزل البلاد عن العالم بما يفقدهم المقارنة بالغير من الشعوب أو حتى حاضريهم بماضيهم .  
ومن هنا لا تجد من يجرؤ على الحديث أو المجادلة فى أى أمر من أمور البلاد أو أحوالهم المعيشية ، الألسنة مكبلة والعيون زائغة ، والأفواه فاعرة ، والعقول شاردة ، فلا يملكون من أمرهم شيئاً . وإذا تحدث البعض فلا بد لهم من التأكد والاطمئنان التام إلى من يتحدثون إليهم ، ولا يتم ذلك إلا بعد طول أناة وفترات طويلة من التروى والدراسة والتحليل ، وتوسع دائرة الإرهاب والتجسس لتشمل أيضاً الأجانب المقيمين هناك ، لا فرق فى ذلك بين مواطني البلاد الشيوعية الأخرى والصديقة أو ما عداها من البلاد الرأسمالية وغيرها . .  
ولقد علمت من مصادر متعددة ومختلفة لأعضاء السلك الدبلوماسي المقيمين بهافانا بأن السلطة فى البلاد لا تهتم كثيراً ، بل لا تقيم وزناً أو احتراماً لقدسية وحماية الدبلوماسية العالمية ، بل تتخذ معهم كل وسائل الإرهاب النازية والفاشية من هتك الحرمات الحقائق الدبلوماسية ، ومن اهتمام بالرقابة والتصنت على أمورهم وشئونهم الخاصة والعامة حتى ولو أدى الأمر إلى المواجهة ، مثلاً حدث لأحد أعضاء سفارة تنتمى لإحدى الدول الشيوعية الصديقة لهم ، عندما خرج لقضاء نهاية الأسبوع مع أسرته على أحد شواطئ هافانا ، كمادة الأجانب هناك ، غير أن سيارته قد أصابها عطب مفاجئ اضطر معه إلى العودة بعد ساعات قليلة ، وعندما فتح باب مسكنه فوجئ بفردين بالداخل سرعان ما تقدما إليه . . وبعد أن تأكد من شخصيتهما -عضوين بجهاز الأمن السياسي الكوبي أبديا له اعتذارهما ، حيث إنهما يقومان بواجبهما ولا غضاضة فى ذلك ، ثم انصرفا وكأن شيئاً لم يحدث !

والحق يقال أيها القارئ العزيز ، أننا كخبراء للأمم المتحدة فقد حرصت المنظمة الدولية التابعين لها على اختيارنا على مبادئ ومقننات دولية تتضمن أساساً حيادنا السياسي الإيجابي والديني المطلق ، بما يضمن أداء رسالنا العلمية الموفدين من أجلها ، ولنعمل بعيداً عن التيارات السياسية وخلافها ، وبما يكفل الاحترام والالتزام الكامل بالتعليمات والنظم الداخلية للبلاد التي نعمل فيها ، حتى ولو كانت متعارضة مع مبادئنا وأفكارنا ، فنحن لها - بالضرورة وبأداء الواجب - منصاعون . . والتزاماً بذلك ، بل تعاطفاً مع أفراد هذا الشعب البائس والمغلوب على أمره ، فلقد قاسينا الأمرين كما رأيت من الأحداث التي قد أشرت إليها . . فلکم تقبلنا ورضينا بالإذلال حليفاً ، ولكم دمعت عيوننا وامتلات قلوبنا بالحسرة والألم تعاطفاً مع كل من حولنا ، ولكم تغاضينا عن حقنا في الراحة والاستشفاء دفعا للعمل وإغما للفكر وتذكيتنا وانتشالاً من الهاوية والكسل الذي هيمن على كيان من عملوا معنا في الحقل العلمي والبحثي هناك .

ولعل هذه الأسباب مجتمعة كانت بمثابة حصن لنا ضد غزواتهم الجسورة والعنيفة للمساكن . . فلقد كانوا يزاولونها في الحقاء متخذين كل الاحتياطات التي يضمنون بها عدم حدوث أى مواجهة كالتى يتبعونها - كما رأينا - مع أعضاء السلك الدبلوماسى خاصة ، بل والفنيين من بلدان الاتفاقات الثنائية عامة . . ربما اقتناعاً بطبيعة كياننا الواضحة ، وبما لم يؤت في تصرفاتنا وسلوكنا من أخطاء أو شبهات ، أو ربما حرصاً على بقائنا واستمرار تواجداًنا تحقيقاً لمطلبهم عن طريق المنظمة الدولية ، وهو قيامنا بالواجب الدولى من نحو التطوير والارتقاء بالإنسان أيّاً كان هذا الإنسان . . ومع كلّ فلم يعفنا هذا أويثنا من

القاعدة العامة وهى التجسس والتنصت ، بل الإرهاب ، فهى فى نظرهم روتينيات الحياة فى بلادهم ولا بد من التمسك بها لدواعى أمنهم ، وتنفيذاً للمبادئ أحكامهم ..

فلكى يقوم الأجنبى - أياً كان - بقضاء إجازته أو بعضها خارج البلدة التى يقيم بها ، لابد أن يتصل بأحد المكاتب السياحية المحلية التابعة للجهة الرسمية المعنية بأمور الفئة التى يتبعها ، وذلك لاتخاذ إجراءات حجز المبيت بالفنادق . . وبعد تأكد المكتب من توفير أماكن الإقامة تصرف له بطاقات الحجز محددة فترات بكل دقة . . ويطلب منه تقديمها مع جواز سفره إلى إدارة الفندق المعنى عند وصوله إليه . . ولا يسمح له بمد الإقامة تحت أى من الظروف . . كما لا يمكن للفرد - بداهة - أن يطلب الإقامة فى أى فندق حتى ولو كان به من أماكن المبيت ما يسمح بذلك . . وبهذا الأسلوب الشاذ بل المهين لكرامة الإنسان والمقيد لحريته يظل الفرد تحت سمعهم وأبصارهم أينما ذهب وأينما تحرك . . بل يتخذون منه فرصة سانحة وسيلاً مطمئناً إلى ترتيب دخولهم إلى مساكننا ، ففترات التغيب عنها محددة ، بل معروفة مسبقاً لديهم .

فقد حدث ذات مرة أن قنا ثلاثتنا من الخبراء وعائلتنا لقضاء بضعة أيام بمحافظة «أورينت» ، شرق الجزيرة لزيارة معالمها التاريخية وقضاء بعض الوقت بغاباتها الطبيعية . . ولكم كانت حيرتى عندما اكتشخت بعد عودتنا أن «حقبة مهائى» وقد نسقت محتوياتها بما ليس من عادنى على الإطلاق ، وكأنهم قد تدارسوا أيضاً عاداتى وسلوكى ، أما أحدا فقد فوجئى بأثر لخدائ قد ترك على بساط القاعدة الرئيسية بمسكنه وكأنه مطبوع بمادة لاصقة سوداء ، ولتكن قاراً ، أما الزميل الآخر فقد تركوا له «ثريا الصالون» لقاءً على أحد

المناضد بعد إنزالها من السقف . . فن الواضح جلياً ، عزيزي القارئ ، أنهم  
وإن تعمدوا ترك هذه التذيرات فلا يقصدون منها سوى التحذير والإرهاب . .  
وكأنهم يقولون لنا : « البحر من أمامكم ونحن من ورائكم فسيروا على الصراط  
المستقيم » !

## وبعد . . فهذه هي الشيوعية !

هذه هي الشيوعية كنظام سياسي واقتصادي واجتماعي بكوبا . . هذه هي الشيوعية كما تعيشها وليس كما قرأت عنها . . هذه هي الشيوعية كما رأيتم في أحد البلاد التي تصادقت وتحالفت مع الاتحاد السوفيتي . . وقطعاً لا تختلف كثيراً عما في غيرها ممن تصادقوا وتحالفوا معها ، فالخطط السوفيتي واحد والهدف واحد . . المخطط هو الاتساع التدريجي لسيطرة الاتحاد السوفيتي ليشمل العالم أجمع ، فليس من المهم تحديد هذا التوقيت الزمني بقدر السعي والوصول إليه حسبما تساعدكم الظروف . أما الهدف النهائي ، بالطبع فهو استنزاف خيرات العالم لحفنة قليلة هم قادة الكرملين بموسكو . . وتتضح هذه السياسة التوسعية منذ قيام البلشفية السوفيتية بثورتها عام ١٩١٧ ضد روسيا القيصرية ، فقد بدأتها قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بابتلاع دويلات : استونيا ولاتفيا ، وليتوانيا على الشاطئ الشرقي لبحر البلطيق ، وقبل انتهاء الحرب - وفي أعقاب هزيمة ألمانيا واليابان - انتشر الجيش الأحمر السوفيتي في شرق أوروبا ؛ في شرق

ألمانيا ، شرق برلين ، بولندا ، الجبر ، رومانيا ، بلغاريا ، حيث كانت هذه الدول تضم أحزاباً شيوعية قوية ، تعمل متواطئة مع الاتحاد السوفيتى وتأتمر بأمر قادته بموسكو مما أدى إلى قيام حكومات شيوعية بهذه البلاد بعد انتهاء الحرب العالمية مباشرة . . أما تشيكوسلوفاكيا فأصبحت تحت النفوذ السوفيتى تماماً فى عام ١٩٤٨ . .

ويعتمد السوفيت فى اتساع رقعة سيطرتهم على اتساع مساحة أراضيهم والممتدة من شرق أوروبا إلى شمالى آسيا ، وأصبح الآن أكثر من ٥٠٪ من سكان العالم تحت السيطرة الشيوعية يخنق بدخانها الرهيب . . وقد نجح الاتحاد السوفيتى فى نشر عملائه حتى فى البلاد الديمقراطية فى صورة أحزاب شيوعية تتمتع الفرء فى هذه البلاد بحرية الكلمة والتعبير .

وبعض هذه الأحزاب يتمتع بنفوذ قوى وفعال كما هو الحال فى إيطاليا وفرنسا ، وحتى فى البلاد التى لا يمثل الحزب الشيوعى فيها ثقلاً أو وزناً سياسياً ، فكثيراً ما يثير الفتن والاضطرابات حيث يكمن الخطر بصفة عامة فى موالاة أعضاء هذه الأحزاب للسوفيت ، فيعملون على زعزعة الثقة فى الحكومات الديمقراطية ، ولينقضوا فى الوقت المناسب عليها ويستحوزون على السلطة ، كما يقومون بدور الجواسيس لأولى نعمتهم فى الكرملين ، ولا يتورعون إذا سنحت الفرصة عن خيانة أوطانهم ذاتها . .

إنهم - كما رأينا فى كوبا - يغدقون المال والسلطة على فئة التوتاليتاريا استحكاماً للسيطرة والنفوذ ، واستترافاً لخيرات البلاد وقوت الأفراد . . وبإضافة أى دولة جديدة إلى فلكهم ، فسرعان ما تبدأ بؤرة جديدة للتركيز



والإشعاع منها إلى ما يحيط بها ، بل تصير السلطة فيها لسان حالهم ، وتدعيماً لهم إما مادياً أو عسكرياً . . كما يحدث الآن في ليبيا وكوبا على سبيل المثال . . وعموماً فالبلاد النامية أو حديثة الاستقلال ، باضطرابات الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فيها ، تصبح مطعماً للسوفيت ، حيث إنها أسرع وأضمن فريسة لهم ، فغالبا ما تستميل هذه الدول وتتقرب إليها بالصدقات الوهمية تحت ستار المساعدات الاقتصادية والتكنولوجية أو الحماية العسكرية ومناهضة الاستعمار الغربي إلى آخر ما في معجم الدعايات والشعارات السوفيتية من جدل وتزييف . .

ولو نظرنا إلى النظام الشيوعي على حقيقته كما تعايشته عن قرب بمزيرة كوبا « لؤلؤة جزر الهند الغربية » لوجدنا فيه الدكتاتورية ، فليس للديمقراطية هناك أى مكان ، والطبقة الكادحة من العمال والفلاحين يشاركون الطبقة البرجوازية الذل والاستتراف بما لم يقاسوه تحت أعتى الدكتاتوريات الرأسمالية . . ولو عاش كارل ماركس واضح نظرية « المادية الجدلية » كما جاءت في « بيانه الشيوعي » ولمس ما تقاسيه الطبقة العاملة بالبلاد الشيوعية وعلى قتها الاتحاد السوفيتى بما يفوق بمراحل ما كان يقاسيه عمال الصناعة في إنجلترا في بادئ ثورتها الصناعية بما دفعه إلى وضع نظريته وقت ذاك للعن نفسه وتراجع عنها ، وصمم على إلغائها معاجم النظريات الاقتصادية والاجتماعية ، بل طالب بإطاحة الشيوعية أينما وجدت ، وتزعم الدعوة إلى ثورة عمالية عالمية للانقضاء عليها ، وليس للمطالبة بتعميمها ، كما كان يعتقد عند وضعه لهذه النظرية المشثومة المتأفة للطبيعة البشرية منذ أن عرف الإنسان الحياة ، وعرف الحياة الاجتماعية ، وعرف الأديان والروحانيات ، وعاش التراث الإنسانى والتعاطف والوجدان

والتعاون والسلم من أجل رفاهية الإنسان وحياته الحرة الطليقة البناءة . يؤثر بها  
ويتفاعل معها بما منحه الله من فكر وقدرة على الخلق والابداع الفكري لم يحظ  
بها أى من المخلوقات الأخرى !  
وعالم غريب لا ينتهى !

## المحتويات

صفحة	
٩	تقديم
١٣	أحلام اليقظة
٢١	حي «ميرامار» بين الماضي والحاضر
٣٣	منحة السعادة في بلاد الشقاء !
٣٧	محو الأمية ودكتاتورية كاسترو
٣٩	الستار الحديدي وعزلة الشعب الكوي عن العالم
٤٣	الذلة والمسكنة تعم طوائف الشعب !
٤٥	الطفولة المعذبة
٤٩	المثقفون والمهنيون يتضورون جوعاً !
٥٩	«البروليتاريا» بين رحي الظلم والحرمان !
٦٣	الترف والبدخ حكر على كبار الحزب الشيوعي
٦٦	فيدل كاسترو
٧٣	الشيوعية امتهان لكرامة الإنسان والقيم الاجتماعية
٨١	السلب وصلافة السوفيت
٩١	كيف تنفذ الشيوعية إلى الشعوب ؟
٩٧	الشيوعية واقتصاديات الشعب الكوي
١٢١	

صفحة

١٠٧

المقايسة والتعاطف بين أفراد الشعب

١١١

« الجستابو » والأمن الشيوعي

١١٧

وبعد . . فهذه هي الشيوعية !

١٩٨٠/٤٢٤٣	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٧٣٣٧-٣٢-٩	الترقيم الدولي

١/٨٠/٩٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. ٢. ع. ٠)

## هذا الكتاب

رحلة من نوع مختلف ، فهي رؤية عن  
قرب لواحدة من الدول التي وقعت فريسة  
مخالب الدبّ السوفيتي : كوبا - لؤلؤة جزر  
الهند الغربية .

ويعيش المؤلف فيها عامين كاملين خبيراً  
بالأمم المتحدة ، تحيطه من كل جانب  
الأسوار الحديدية ، والقيود الرقابية ، لكن  
ذلك كله لم يحل دون الكشف عن قناع  
الشيوعية الحقيقي ، وهي تنفث سمومها في  
البشر: إرهاباً وإذعائاً . .

لذلك يعد هذا الكتاب جديداً في  
نوعه ، لأنه جاء بعد مواجهة وتجربة  
ومعاناة .